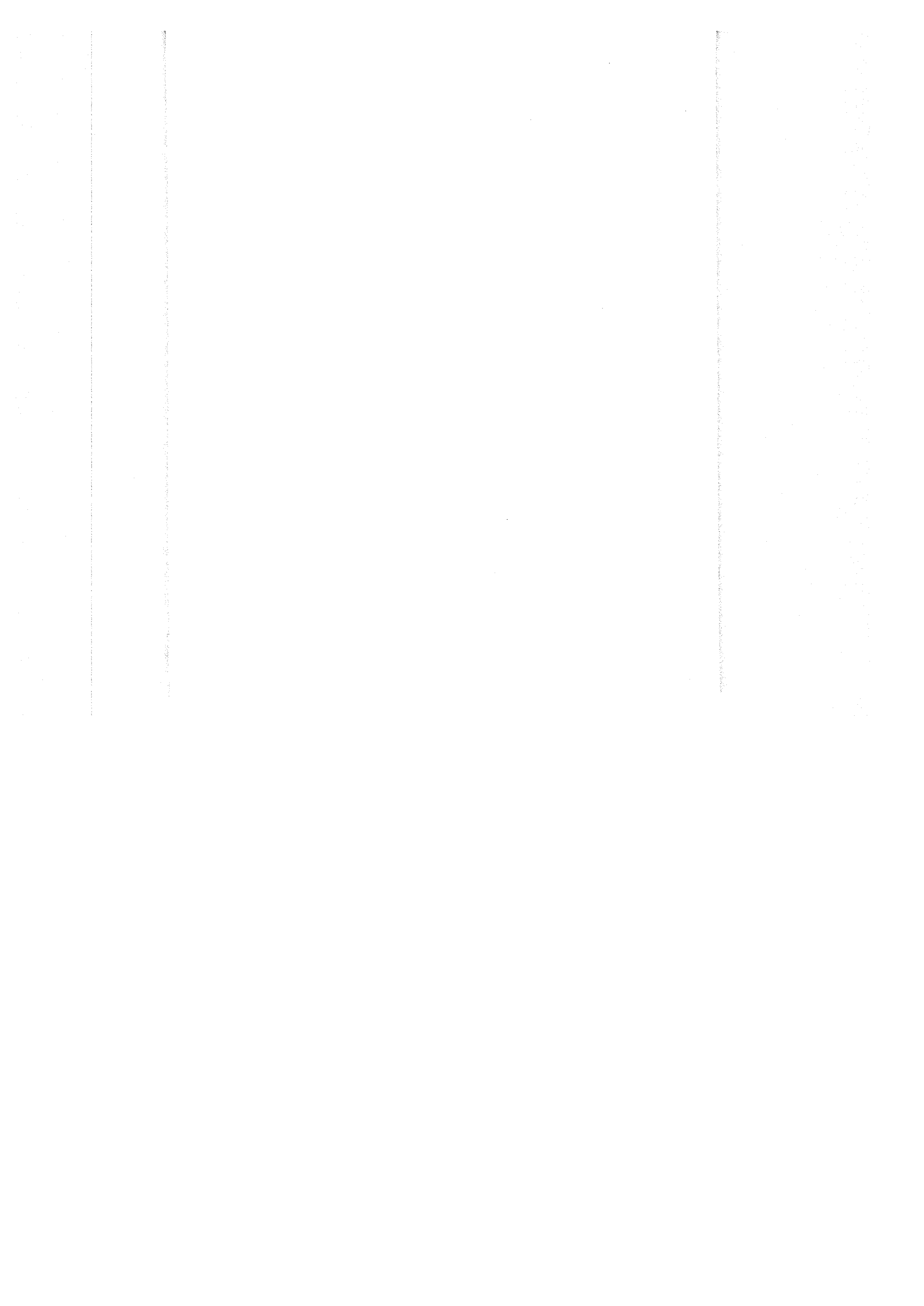
القرميّة

الليل والبيداء

سميحة خريس

سنابل
للنشر والتوزيع



القرمية

الليل والبيداء



سنابل للنشر والتوزيع

الإشراف العام:
د. طلعت شاهين

مدير التحرير:
علـــي حامـد

المراسلات:
ص.ب: 22
الحي المتميز – مدينة 6 اكتوبر
جمهورية مصر العربية

Tel.: (+202)8354069
Mob.:0122250787
E-mail:
darsanabil@maktoob.com

الكتاب: القرمية.. الليل والبيداء
المؤلف: سميحة خريس
الطبعة الأولى: أكتوبر 2003
رقم الإيـــداع: ١٧٦١٥ / ٢٠٠٣
الترقيم الدولي: 977-5634-06-9

حقوق الطبع محفوظة

تصميم الغلاف: علي حامد
تنفيذ: كامل جرافيك

القرميّـة

القرميّة:

في مفهوم أهل شرق الأرض، هي جذور الشجـرة العظيمة، وهي أشبه ما تكون بجسدٍ صلدٍ تخرج منه الجذور الصغيرة.

في اللغة:

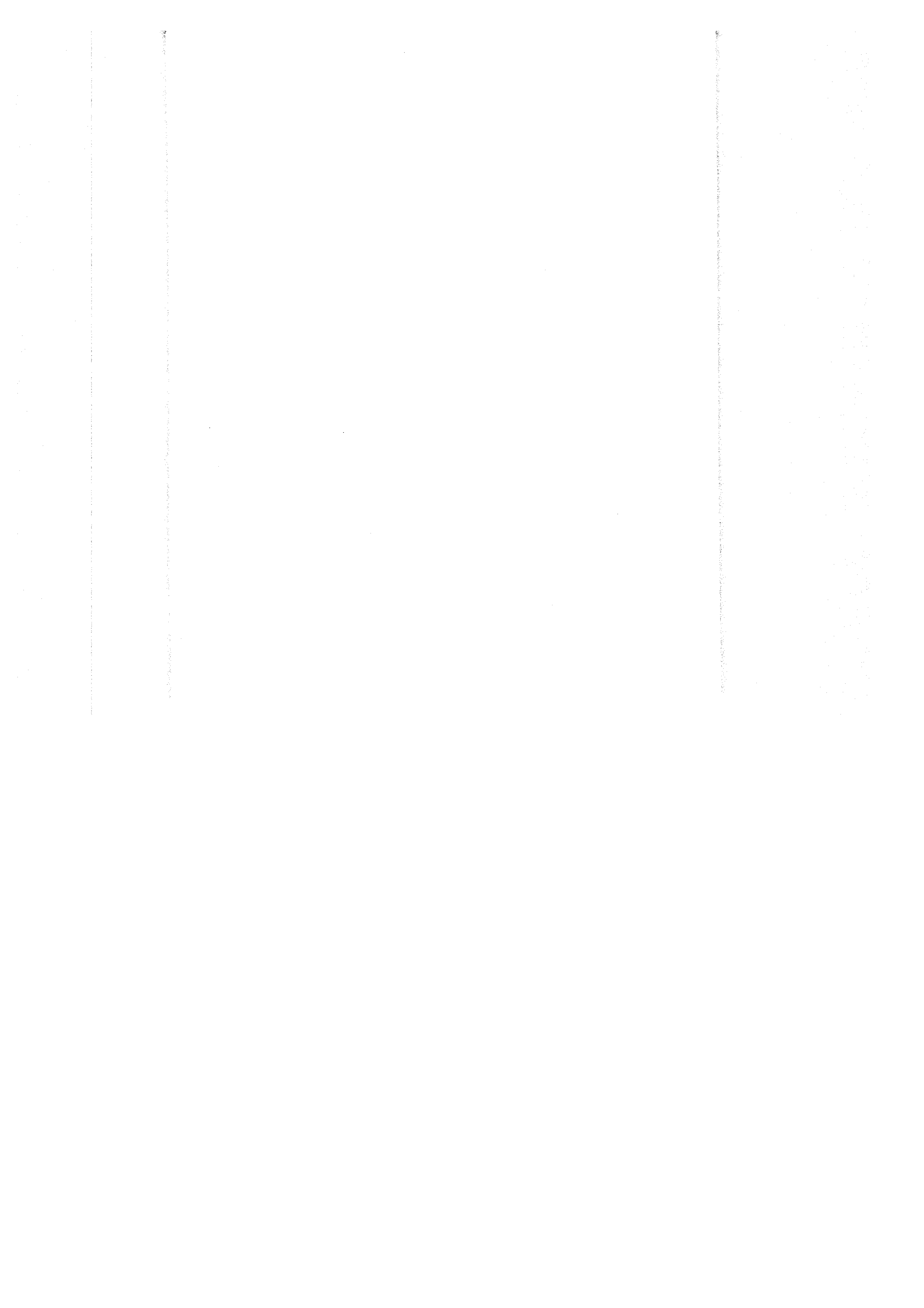
قَرَمَ الشيء: قشره.

قَرَّمَهُ : عَلَّمه الأكل إبان الفطام.

القرامة : كل ما يلزق من الخبز في التنور، وما يقشره قاشر.

القَـرْمُ : من الفحـول، الذي يُترك من الركـوب والعمل، ويودع للـضِّرَاب، ومن الرجال، السيد المعَظَّم.

القُرْمُ : شجر ينبت في جوف ماء البحر، ويُسَمَّى أيضاً الشورى.

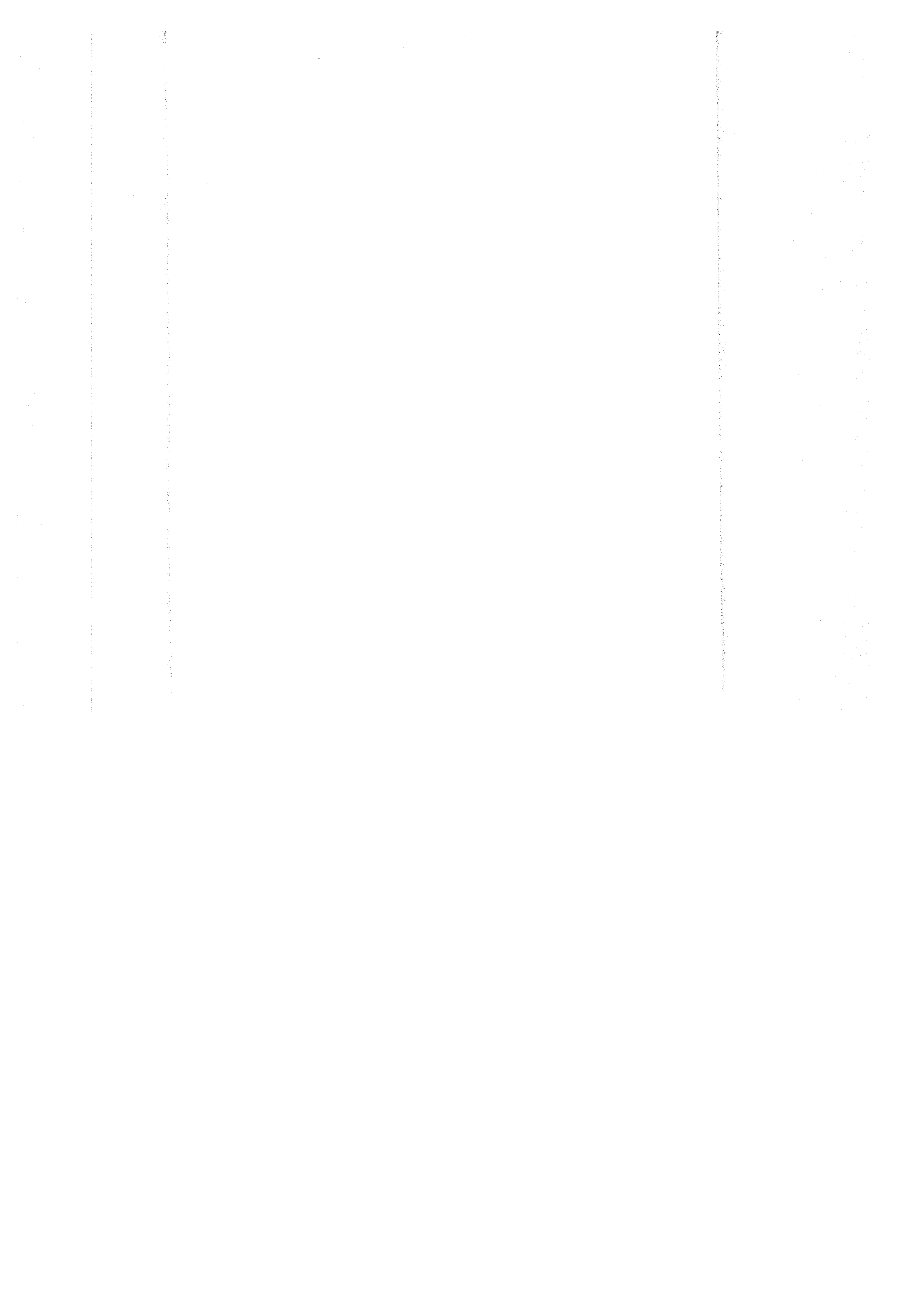


الحكمة بنت بيتها... نحتت أعمدتها السبعة.

«الإصحاح التاسع»

طوبى للإنسان الذي يجد الحكمة، والرجل الذي ينال الفهم.. هي أثمن من اللآلىء، وكل جواهرك لا تساويها، طرقها نِعَمٌ، وكلّ مسالكها سـلام، هـي شجرة الحياة.

«سليمان في كتاب الأمثال»



ما طرفت أجـفانه وهو يغادر الكهف، ومـا عشيت عـينيه إضاءة النهـار القوية، ووهج الشمس الساطع، وقال من شاهد قامته المهيبة تطلع من عتمة الكهف إلى نور المكان كعـمود من دخان.. لابد أن الحكيم عَمَي، فكيف له بعـد سنوات الاعتكاف الطويلة أن يواجه سنا الشمس فلا يرف له جفنٌ، ولا يتّقي سياط النور بكف؟ ضاع البصرُ، وما أخـرجته إلا البصيرة التي يعرفـونها رفيقة عمـره العتيق. همسَ أحدهم في أذن الشيخ متوجساً:

– ما يطلع الحكيم من الطور غير الشدايد.

منذ عصى أهالي الشوبك* أوامرالجندرمة الترك، وتشعلقوا كالجن فوق أسوار القلعة، مـانعين نساءهم من نقل الماء إلى الجند، ومنذ اقـتاد الترك ثلاثة فـرسان إلى سجن استانبول، والشيخ معتكف في كهفه.

مازال الفتيان الذين صاروا رجالاً، يُحدّثون كيف صعد الحكيم إلى ذروة الجبل، وتوجّه نحو الصّدع مُلْهَماً، وإذا رأى الغار، دخله ثابت الجنان، فانثال نورٌ لا يعرف مصـدره، وفرّت من عتـمة الداخل عشـرات الأشباح الـرمادية الهلامـية الأشكال، تدافعت مـولولة كمـا لو أن مساً أصـابها، وتُقْسم النسوةُ أنهن سمـعن صراخـها، وزعقات الرعب التي انطلقت من أجسادهـا، وهي تتلاطم فى مدخل الكهف بحثاً عن منفـذ للفـرار، تاركـة دارها الـتي عـمَّـرتهـا دهراً، للرجل الإنسـان الذي قـرر سُكْنَاها.. وسـرعان مـا تبددت الأصـوات والأجسـاد في الفضـاء وما عـاد الحكيم يسرح في الفيافي يُعلِّمُ القلوب الحكمة، وما عاد يمدُ كفه فيبسطها ظلاً فوق رؤوس المواليـد الجـدد، يده التي باركت الفـرسـان، عـُودة وزعل وعليـا وعَـبطان وعطش وصبـيح وسالم وعيـد وحمد والأرْشَفَ، كـان ذلك في الماضي، ثم، انقطع الحكيمُ سنوات عن مباركـة المواليد، فخشي الرجال انقطاع نسلهم من الفـرسان، وابتأست النسوة مخافة أن تتساوى الأجنَّةُ في أرحامهن، فلا تتباهى إحداهن بفارسٍ.

---

* عصيان الشوبك ١٩٠٥.

جاءت ولأّدات كثيرات يستعطفن عند مدخل كهفه، ينطرحن آملات:

- بجاه المعبود يا حكيم.. لا تردّنا.

يرفع الحكيم رأسه مثقلاً، وعبر الحلكة الدائمة يتفحص خيالات النسوة اللواتي ينتظرن ولا يتجرأن على ولوج كهفه، يتهدل رأسه مجدداً نحو صدره.

وحدها أخت الشيخ «عليا» تلج الكهف بقلب شجاع، حاملة شيئاً من الطعام يقيت به الحكيم جسده المهيب، وسراج عقله الذي ما انطفأ، تتحسس الصغيرة دربها إليه، فإذا ما أدركت طيفاً قابعاً في الظلام، توقفت، يبتسم الحكيم للصغيرة ذات العيون السود، ويلمس جديلتها بحنان، فتترك له على حصير مهترىء ما أرسلت به أمها «عمشة»، وتقول في كل زيارة، وبحماس لا يفتر:

- «عوده» يترجّاك تقصده.

يحافظ الحكيم على ابتسامته، ولا يجيب، ولا يستجيب.

أي طَلْسمٍ يفكُّ سرّ الحكيم، ويُخْرجه إلى ذاك العراء، ليبارك الفرسان من جديد؟

قال المعلم «دايود»:

- هذا بعلم الله... يبغي له معجزة.

أتراها حدثت في مكان ما من الكون!!

خرج الحكيم هذا الضحى، والشمس تعرج لاعتلاء صدر السماء الفسيح، فاستبشرت النسوة خيراً، تناقلن الخبر بين المضارب والخيام مبتهجات، وتفلّت الصغار ينظرون أي رجل جليل تتحدث عنه الأمهات، جاوز المائة سارقاً من العمر فوق ما منح الإله للبشر، يتقدم الآن في خطوة شاب واثق!!

يجتاز الطريق الصخري الوعر إلى سهل الجفر المديد، هابطاً جبل «مشهاق» وقد اتزر بفروة ضخمة فوق عباءة رعوية مخططة بالأسود والأبيض، يمد عصاه متكئاً إذا ما وعرت الطريق وانحدرت بشدة باتجاه السهل، ومضى خلفه رهط المتوجسين السائلين.

عندما وصل إلى الحصْبَاء السوداء وصار في ذلك الامتداد المخيف، فخالط زواله إيحاءات السراب اللامع فوق أرض الصحراء التي لا تشبهها صحراء... أومأ «الشيخ» للرجال أن دعوه، فالحكيم ماضٍ إلى غاية يدركها ومقصد يبتغيه، خُطُواته ثابتةٌ واعيةٌ، ارتد الذاهبون خلفه.

سائرٌ في الفلاة يسمع بوضوح خشخشة الحصى الصوانية الحادة، تحت وقع خطواته الثقيلة، وصندله الجلدي القديم، مسحوباً بسحرٍ غامض يُسَيِّر قدميه. وسط ذلك السديم من توهج الصحراء اللا متناهي، تراءت له الغمامة: السماء الزرقاء تمتد صفاء بلا نهاية، فلا غبش ولا تداخلات، غمامة وحيدة تدفعها الريح بلطف، تتقدم في عرض السماء، وضع الحكيم يداً على صدره يستشعر نبض جنانه الملهوف، ويحايل اهتزاز قدميه بعصاه، يغرزها بعزم في رمل الصحراء المخبوء تحت طبقة فتافيت الصّوان الأسمر.

لاحت القافلة، الجمال تمشي وئيداً، وغمامة الصيف المدهشة تتوج بظلّها رؤوس السائرين... ثلاثةُ رجال وأربعة أباعر وفرس، كلما تقدموا اتضحت معالمهم أكثر، تسمرّ الحكيم في مكانه لا يريم حراكاً، واقتربت القافلةُ من الزوال الذي لاح وسط الفراغ، لأصواتهم رجعٌ كالصدى.

- ديرة من يالخو؟؟

- ديرة الله.

- والنعم بالله.

مُعَفَّرون بغبار «سيناء»، التعب رفيق خطاهم المثقلة، والحمل يبطىء من حركة الأباعر، والفرسُ الشقراءُ بلا فارس، يعتليها خُرجٌ كبيرٌ، رصد الحكيم بوعيٍ وانتباه شديدين حركة الغيمة التي تتناغم مع حركة الفرس، وإذ أصبح الرجال في مواجهةَ الحكيم، أفصحت وجوههم عن فرح وقد وصلوا مبتغاهم بعد طول سفر.

تقدم الحكيم خطوات دون أن يرد، رفع كفه يتلمس عنق الفرس، وذَهل وعيناه تتنقلان.. نظرة إلى الغيمة، ونظرة إلى عيون الفرس الواسعة.

- أصيلة؟؟

- إي والله أصيلة، معممة مخولة، وقلنا ما تليق غير بالفارس.

عادة «الدواج»* أن يصل ببضاعته إلى حيث يقيم البدوي ويرتحل، فلا يقتسم غنائمه القليلة مع تاجر سواه إلا إذا بعدت الرحلةُ وشقّت. فإنه يستعين على قيظها ومخاوفها ومخاطرها بالرفيق والأنيس، ثلاثة قطعوا الفيافي من بر مصر، واجتازوا سيناء إلى أرض الجوف مُحملين بالبضائع، وقد شدوا إلى صدورهم بنادقهم، للحماية والأمان من غدر الصحراء المحتمل.

فاض البشر من الوجوه المضناة لدى رؤية الكهل المهيب، موقنين أن كهلاً مثله لا يخرج إلى الفلاة دون سلاح إلا إذا أمن الديار، وقادتهم توقعاتهم وخبرتهم بالديار إلى تقدير صحيح، فهم على أعتاب «الجفر» مركز الشيخ عودة أبوتاية شيخ الحويطات، أخذوا يهنئون بعضهم بسلامة الوصول، ويواصل الحكيم مسح الفرس المعترقة بكفه إلى أن ارتطم بالخرج فنظره، وفاضت عبرة ساخنة في المساقات التى حفرها الهرم على صفحة وجهه، تريث وهو يستشعر فؤاده ينفطر، وتجتاح جسده رعدة ناعمة ما خبرها وهو الذي جرب أصناف اللوعات كلها. حين تمكن من استجماع أنفاسه، سأل عن الرضيع الذي توسد الخرج الملقى على عاتق الفرس الأصيلة.

تبادل الثلاثة النظرات، تبلبلوا، واختلط عليهم الأمر، قفز أحدهم إلى جوار الحكيم.

- عليها وجه الله ما سرقنا ولا بُقْنا ولاحنّا تُجار للعبيد.

- اسمع يا وجه الخير سالفتنا، وصدِّق وإلا ما تِصدّق، هاذي علُومنا.

ثلاثة خرجوا من مصر.. «الدواج» و«الدليل» و«الطراح» *، عبأوا الزكائب

---

* الدواج: تاجر متجول في البوادي.

* الطراح : صائد الصقور.

حنطة وسكراً وملحاً، قال الطراح، إذا صدنا الصقور بعناها بالذهب، ولأن المؤونة كانت طيبة، وحركة الرجال سهلة لا يعيقها عائق، وجمالهم الثلاثة فتية قوية، فقد تقدموا في مسيرتهم نحو الجوف دون عجلة، يتوقفون كلما طاب لهم، وجادت الصحراء بنسائم مفاجئة، وحيثما يظن صائدّ الصقور أن المكان مناسب، يختبئون خلف الصخور ويضع الصياد شبكته الصغيرة المربوطة بحبلٍ في يده بين حجرين، يغطيهما بالطين تاركاً غرابه «زاغ البقع»* ، وحمامة وديعة فى المكان، ماداً من قدم الغراب حبلاً، ثم يهجع مع صاحبيه في مخبئهم. يطول الانتظار، حتى إذا ما سمعوا نعيق الغراب، أيقنوا قدوم الصقر، فشدوا غرابهم إلى مخبئهم، تاركين الحمامة تلقى مصيرها. وإذا ما انقض الصقر على جسد الحمامة الوديع منشباً مخالبه ومنقاره، جذب الطراح خيط الشبكة الفخ، فوقع فارس السماء في شركه، أربعة قرانيس* من فصيلة زين النادر وقعت في شباك الطراح، فاستبشروا برحلة خير لا مثيل لها، حتى إذا ما توغّلوا في الجوف واستشعروا طول الرحلة ومشقتها، التقوا بقافلة من نجد.

طار صوابّ شيخ القافلة وهو يعاين الصقور الأربعة المكمَّمَة والمقَطَبَة أجفانها بقناعٍ من الجلد بانتظار أن تُوالفَ البشرَ، ساوم عليها، ورد الدواج بخبث:

- ما هي للبيع، هاذي للشيخ عودة يشتري الصقر بثماني مجيديات.

لم يتردد شيخُ نجد في إعلاء الثمن، وواصل الدواج، التدَلّلُ، وقد أدرك أن هوى الصقور أصاب فؤاد الشيخ النجدي الذي استسلم سريعاً هاتفاً:

- امْهَرْهَا بفرس أصيلة.

أمر رجاله فدفعوا أمام أعين التاجر ورفاقه فرساً مُحجلة أطارت لُبَ الدليل الذي انحنى نحو الدواج هامساً مقسماً أن الفرس أصيلةٌ لا تَخْفَاه، بل هي أثمنُ من

---

* زاغ البقع: نوع من الغربان.

* قرانيس: نوع من الصقور.

كل صقور الديـرة، وتمت المقايضةُ. الشيخ النجـدي فوجيء بفرسه تعـترق بغزارة، فقدر مرضها، وضعفها عن مواصلة الرحلة إلى مصر، ظنّ في الأمر صفقةً رابحةً.. وهكذا واصل الدواج رحلته، دليل وطراح، أربعة أباعر وفرس.

- والولد..!!

- جايك بالسـالفة، صدقني يا هاللحيـة الغانمة.. شيّ ما نَظَرته عين ولا سمـعته أُذن.. مثل الحلم في ليلة قدر.

أول من شاهد «الحُرّ» يجول في عرض السماء كانت عينا الطراح الخبيرة.

- عيني ما تخطيه، «حُر شبوط»* ، غنيمة رابحة.

امتزجت فرحة رؤيته بالدهشة، فالصـقر الذي يَصْعُب اقتناصُه. يحلق منخفضاً، رجَّح الطراح أن هناك فريسـة قريبة من الأرض، ولكن الصـقر لا يندفعُ ولا ينقضُ إنما يحوم في دائرة مـحددة، عندها اقـترب الرجال فتـمكنوا من رؤية «الشيـهانة»* تَرْقُد بصورة مريبة في أرض خلاء.. قال الدليل:

- الشيهانة راقدة على بيضها، وإلا قولوا ما أفتهم.

لعبت الغنيمة بعقول الرجال، حر وشيهانة، وفرخ جديد،

عند المغيب حمحمت الفرس وصهلت بقوة فأفزعتهم.

- علامها الفرس تكب عرقها!!

حَلَّق الصقر مـبتعداً، وراحت أنثاه تتـدحلج فوق بيضتهـا، وشهق الرجالُ وهم يرون تحت إضاءة الشمس البرتقالية الغاربة بيضة ضخمة كأنها بيضة النعامة:

- ما هي بيضة صقر!!

- شيّ عُلُومه عند رب العالمين..

انعزلت الشيهانة عن البيضة بمقدار، وواصل الحر تحليقه عالياً، ثم ظهرت غمامة

---

* الحر: أفضل أنواع الصقور.. الشبوط الذكر منه.

* الشيهانة: أنثى الحر.

في السماء، قال الدواج:

- غمامةٌ واحـدةٌ ياخو، والفرس تَصْهل، ما درينا هي فرحانة بـالظلة اللي بعثها رب العباد. وإلا مـفزوعة من صوت قـشر البيض وهو يتكسر كُنـه الحديد، وصدق وإلا ما تصدّق، طارت الشـيهانة ورا الشبـوط، دشّرت البيضة بـالفلاة.. وغابوا عن النظر.. وصـدق وإلا ما تصدق، بـين القشر وتحت الـغمامـة لقينا هالـرضيع.. أول صيحة جمدت الأباعـر، يوم حملناه ثاغت الفرس وحنّت كنها العنز الولوف، قلنا، ويش هالعطيـة؟؟ ويش هالبليه؟.. ويش نطعُـمه، ويش نسقـيه؟؟ وصـدّق وإلا ما تصـدّق، بإيدّيه هاذي أكـوش عَـرق الفـرس واقطّر في ثمـه، ثلاثةُ أيام بليـاليـهـا، ونقـول، ما يندري يموت الوليـد وما يموت.. وصـدّق وإلا ما تصـدّق، الغمـامة مـا فارقتنا، وهربّها فوقنا تشهد علينا.

أمسك الحكيم برسن الفرس، ودثّر الصغير بعباءته الفضفاضة التي شهدت معه الدهر، ضم إليه الجسد الغض وتقدمهم نحو المضارب.

بكت عيـون «عودة» على الصـغيـر، وعشقت الفـرس فابتـاعها بـالذهب، قال وصوته يجلجل قاطعاً أملهم في التفاوض:

- الحر ما ينشرى، والولد ما هو عبد!

شدّ الحكيم الرضيع إلى صدره العامر بالحكمة، وواصل عودةُ:

- شيل يالدواج من الديرة بذهبك، يرخص الذهب للـفرس الأصيلة، ولا يوف ابن الحُر والشيهانة... الحُر ما ينْشَرى وهذا عطية العالي في سماه للحكيم.

ويلتفت إليه:

- هذا إولَدك إن ربى راد.

أمطرت غيَمـة الصيف التي رافقت الوليد إلى المضارب، ثم تبـددت في السماء تاركة وراءها قوس قزح بهيجاً، تفرّس الحكيمُ وجه الوليد الوديع وقال:

- مبارك ولدي «عقاب».

حمل الحكيم «عقاب» إلى كهفـه، فتبعته عيون حانية.. راقبتـه الشيخة عمشة أم

عودة ثم قالت:

- وليد، شُوفته تذوِّب الصفا.. كيف القلوب؟ شُوفوا من في الحريم أمهات الفوارس ذيذها يدر وخلها توافي الحكيم في مغارته.

خرجت خلف الحكيم كل أم أرضعت فارساً في القبيلة، ودرّت أثداءٌ كانت جفت زمناً، وكأنما عطر فوح الحليبُ باريجه الديرة كلها.. واقتربت عمشة من الفرس تمسح غرتها المبتلة مشفقة، فتبسم الشيخ.

- يمه... تراها أصيلة، أدوعتها طوق حمام برقبتك، اكرميها مع الصقلاوية.

تكرست منزلة الأصيلة عالياً منذ أن أمر الشيخ بأن تكون تحت عناية أمه، وهي التي تُعنى بأحب فرس إلى قلبه، الصقلاوية.. عندما رفعت «عمشة» الستارة عن الفرس، تواجهت الفرسان، وهتفت المرأة وقد سلب قلبها هذا البهاء:

- الله.. الله.. الله..

ولأن الصقلاوية هزت رأسها بعنف، فإن عمشة ضحكت:

- علامكْ يالغيورة؟ هاذي عروس لولدك الأبجر، هاذي الأصيلة.

في تلكَ الليلة عاد فارس القبيلة «زعل» على ظهر الأبجر الذى انطلق شهاباً مارقاً رغم محاولات زعل لشد لجامه، فلم يلجم، وظل يثير الحصى بقوائمه حتى حاذى خباء أمه، فسكن للحظة، ثم رفع رأسه عالياً يَسْتَرِقِ النظر خلف الستار وحمْحَمَ.. وراء الستار هَمْهَمت الأصيلة.

قال الشاعر «أبو الكباير»:

- ابشر يا الشيخ بنسل الأصايل.

والشيخ وإن أدهشته الأحداث المتتالية، خروج الحكيم المفاجىء من عزلته، ظهور «عقاب» الغامض العجيب، غيمة الصيف التى أمطرت، والأثداء التي فاضت لبناً، والتماع جسد الأصيلة كجوهرة بفعل بريق تعرقها المتواصل. كل هذه الأحداث لم تصرفه عن استكمال استعداداته لسوق الفرسان إلى وادي السواقة، حيث يقطع بهم حدوده لغزو بني صخر. الذين ما كانوا غافلين عن استعدادات

الحويطات، وقد أعدوا لهم أشد وأقوى فرسانهم.. حديدٌ يلاقي الحديدا.

اعتلى القمر صفحة السماء الحالكة السواد بدراً، وواكبته نجوم الثريا، ونظرت «عمشة» إلى السماء بحسرة، ثم فارقت الخباء باتجاه مرابط النخيل، تلمست تحت الظلام درباً تعرفه، واقتربت، عينٌ على المرابط وعينٌ على خيمة الشيخ، مازالت نار المجمرة موقدة، وهواء الليل ينقل إليها أصوات الرجال الساهرين، في قلبها حنين أم، أكان عليها أن تودع ولدها الشيخ؟ أن تضمه كما تفعل الأمهات! أن توصيه خيراً بنفسه؟

لم تفعل ذلك عندما حملته على ارتداء فروته وهو طفل يافع بعد، فربطتها حول جسده النحيل بحزام عريض وأرسلته يُعيد إبل القبيلة التي نهبت، ووالده الشيخ طريح الفراش يبكي من مات له من الأنجال الذكور، ولا يستبشر بأن يرى في الصغير رجلاً، عندها قالت «عمشة» لولدها:

- لو تْرجع دون البل لأذبحك بإيدي، واقطع الدّيذ اللي أرْضَعك.

عاد الفتى ليلتها بالإبل وفروته ملطخة بالدماء، صار رجلاً وفارساً وشيخاً بساعده، فبأي قلب تستدعيه الآن تودعه وهو في الأربعين شيخ حقيقي، وفارس لا يشق له غبار؟ بأي قلب تُقبِّل كتفه وهو يستدير خارجاً للغزو؟ قبل أن تغافلها الدمعة، أمسكتها، وتحسست الخرج في مقدمة المرابط، فوقعت يدها على ما أعدت من طعام للصقلاوية.. اقتربت منها، فَحكّت الفرس رأسها برأس المرأة، ورفعت «عمشة» عجينة السمن والسكر والدقيق في يدها، فانحنت الفرس نحو اليد الحانية تلتهم ما أطعمته ،وترنمت «عمشة» بشجنٍ تخاطب الفرس:

- انت وداعتي وراعيك وداعة الله.

فجراً سَارت «الصقلاوية» خلف البعير الجهم الذي يمتطيه عودة، مدللاً الخيل بتركها حُرة حتى اللحظات الحاسمة من اللقاء بين الفرسان المتحاربين، مضى عودة تحف به الفرسان، سيل من الخيل والإبل والرجال يندفعون إلى وادي السواقة.

ينظم «أبو الكباير» قصيدته في الخباء، ويصرخ المعلم «دايود» بعلوِّ صوته:

- لِمّوا الضعوف تانهرج وياهم بسيرة أبوزيد الهلالي.

تدافع الصغار وقد شفّهم الفرح، فالأستاذ الذي جلبه الشيخ من حضرموت ليقصّ على الكبار حكايات أبوزيد وعنترة وألف ليلة وليلة، استوحش غياب الكبار، وراح يعرض حكاياته عليهم، تحلقوا حوله وحملقوا يصيخون السمع.

عند مدخل الكهف وقف الحكيم يرقب سيل الرجال، ويرى طلعة الفجر تضفي على وجه الرضيع بهاءً، تفرّس في الوجه الوضيء متدلهاً:

- هاذي الفرسان رايحه تشعل حرابة يا عقاب، وانت ابن الحر معي اعلمك ترعش بسيفي.. حمل ثقيل ما ينشال.

- يا عقاب، يا جوهر الحكمة المخبوء لي في كتاب، يا فجر الغد، يا من جسده ماء الحر الذى حَلّق بعيداً ولن يعود، يا عقاب يا رجع الصدى لكل النداءات الدفينة السخينة تمر فوق يباب الصحارى تسيل مجرى الغدران والنهر الوحيد والدمع الغزير، يا عقاب يا محط عين البصيرة.

تأمل حد الأفق وارقب كيف تصبح صفحة السماء مرآة الأرض، وكيف تنتقي من أرواح البشر نجوماً ترفعها إلى علاها فتتوهج ثم تصير رجوماً للشياطين، تأمل يا بني حد الأفق، واعلم بأن الحقيقة كنزٌ لا يجدي طول البحث عنه حولك، إنه يضيء فجأة، في لحظة من الزمن، شهابٌ ثاقبٌ، يولد، ماءٌ دافق.. تراه في رجع الريح وتقاطر المطر، عندما تفتح السماء أبوابها، لا تفتن، لا تطل الوقوف متأملاً، وارتد بلحظة الكشف المثيرة إلى أعماقك الخاوية، ستراها امتلأت وفاضت.. عندها تبصر وجه الحقيقة.. وتقع عيناك في عينيها، هناك في حناياك الخضر، وحيث تترنح روحك بانتظار المعرفة.. ستعرف، وتولد من جديد، تولد كما ولدت في الأزل، في إهابك تعود الحكمة مجسدة، وتصير الخيل الصافنات ركوبك، وحيثما حطت يدك اخْضَرّ المكان، وأمسكت كفاك خطو الزمان الذي غفا طويلاً.. تهزه فيستيقظ..

ها هم يحتربون يا عقاب «ألا أيها الليل الطويل»* ...

* من قصيدة لإمرىء القيس.

العين لا تُعَـار للبكاء والسـيف لا يدفع للأعـداء* سـيـفك لا يقـعن من يدك، وليلتمع فؤادك الصـادي كحده البتار، ليـعم ضياؤك كيفمـا ولّيت وجهك. ولترفع سيـفك نزالاً وطعاناً دون هذا البهـاء، وحدك تحمـل الأمانة. «فأبين أن يحـملنها»* ومـا أنت بجـهول غـرور، ولكنهـا الريح، اصطفـتك، والدرب انفـتـحت لخطوك، مبـاركة عيناك الساهرتان، مـبارك عقاب الـسماء ماء الحـر «يخرج من بين الصلب والترائب»* ، ارفع عـينيك عن الكون وانظر فى أعـماقك، أكّـد بقلبك وعـقلك، ارفع سجف زمـانك لتصل إلى الحكمـة الراقدة في كهـفهـا.. تقدم.. ستـجدها... الحكمة هنا، الحكمة هنا..

وضع الحكيم كفه على صدره موضع القلب، وبتـماثل غريب رفع الرضيع كفه إلى صدره، وأصغى، اتسعت حدقتا عينيـه وهو يستمع إلى دقات قلبه المحفوظ في قفصه.

---

* من سيرة الأميرة ذات الهمة.

* القرآن الكريم - سورة الأحزاب الآية ٧٢.

* القرآن الكريم - سورة الطارق الآية ٧.

بين لمسة الحنان والصاعقة الخاطفة
كان اكتمال آدميتي.. بك أنتِ
«سميح القاسم»

قالت «رملة» لزوجها:

- ثن يا ابن الحلال، تراني حليتك مني، ورضيت بالضُرة لاجل اشوف لك خلف.

لف الحارث زوجته بعباءته:

- يا بنت الاجاويد، المقدر ما منه مودّر، وانا رضيت بقسمتنا سويه.

خمس سنوات عجاف مضت، ورحم رملة لا ينبت ذكراً ولا أنثى، سنوات عجاف طالما توهم فيها الزوجان أن أمر الله سينفذ بينهما بين ضجعة وأخرى، كانت رملة تحنّي قدميها وشعرها، تنفض فرشها وتقش كهفها الصغير القابع فى أسفل البتراء، وتنتظر راعي بيتها وحليلها كل مغيب، تتوسد فراش السعف والشيح الذي نسجته كفاها، وتمنحه الجسد عفياً فتياً تائقاً متلهفاً، ويقبل مشوقاً راغباً متمنياً، وتمر السنون عجافاً «تزوج سواي يا رجل» قالتها مرات ومرات، وفي كل مرة يتجلد ويُدَثرها بعباءته، ويُطَيب خاطرها كيما يطيب خاطره.. هذه المرة قال لها:

- شدي البلّ ع «معان»، يجوز ربك تارك الفرج عند أم جديعة.

ربط الزوجان فرشهما القليل، وزادهما اليسير، ويمما «معان»، شعرا بالأمان وهما يرقبان بيوتها المطلية بالشيد، ومن حوانيتها حملت رملة الكحل والحناء وابتاع الحارث السمن، وصعدا إلى مزار «أم جديعة» يتباركان ببركتها.

فوق الكثيب لاحت ظلال أشجار المقام، فتأخر الحارث وصرخته تنحبس فى صدره:

- يا عاطي.. تراك الكريم وحنا العبيد.. يا عاطي.

تقدّمت رملة نحو الشعاب، وفي مواجهة الصخور الصم ارتعدت فرائصها، وترنحت قدماها وهي تنحني إلى جوار الصخرة المستديرة، هزيلة خائفة راجية، تركت صرة النذر اليسير، وتمتمت بحروف لا معنى لها، لم تسعفها حنجرتها بنطق، فانهمر دمعها سخياً... بإرادة الرجاء دارت سبعاً حول المقام، وظلت شفتاها تتمتمان بحروف مفككة، قالت في قلبها، الله يعلم ما أريد البوح به، لا يهتم

بسلامة الكلمات، أم جديعة في قبرها العالي تفهم ما أتيت أترجاه وأرتجيه، وإذ أعياها الطواف خانتها قدماها، ارتمت فوق الصخرة المقدسة وشهقت بالآهات، عندما سمعت صوتها لم تعد مترددة، بل إن يقيناً غامضاً انبلج في صدرها أكثر قوة وإرادة.. إذا لم يحدث ما تتمناه الآن فلن يحدث أبداً، إذا لم تمسك الصخرة بكل عقلها وجنونها وترغمها على تحقيق أحلامها، فإنها النهاية. حَكَّت ظهرها وبطنها بعزم وقسوة في جسد الصخرة الأملس، وبكت دون توقف، بيدها تمسك السر وتهزه فيبوح..

عندما عاد الحارث وزوجه من رحلة البركة في معان. راحا يرقبان القمر في سمائه صامتين، وهما يدفعان ناقتهما، ويمتطيان البعير.

تكوَّر القمر بدراً كاملاً، ثم فارق بهاؤه السماء وانثنت رملة إلى صدر الحارث وهمست:

- لليوم ما جاني نجس يا ولد العم.

قفز الحارث من فوق البعير مضطرباً، مَسَّد الرمال بقبضته، ومدَّ عباءته، رفع رأسه إلى الأعلى، وهتف:

- يارب.. فرشت عباتي، اقبل صلاتي.

وخرَّ في سجدة كاملة، فسمعت رملة من فوق البعير شهيق الفرح، وانهمرت دموعها مجدداً.

قال لها:

- يعطينا فارس تتحكي باسمه العربان.

- وان جت أنثى؟

- مهرة بغطاها، نحمده الذي أعطاها، تنتخي بها الفرسان.

قَرَّ رأي الزوجين على أن لا يرهقا الرحم الذي بالكاد حمل بذرة الحياة في مسير طويل، لوى الحارث عنق بعيره وناقته، واستقرب الجفر، عن المسير أياماً أخرى إلى البتراء.

نزلا حيث أراد لهما الشيخ، في خيمة قريبة من خيمة أمه وولده، وإذا ما استقر المقام، وتيقنت «رملة» من حملها، أفشى الحارث سره، لقد سجد فوق رمال الصحراء وبكى مخلصاً مستغفراً ربه، ونذر حجة إلى البيت العتيق في «مكة» قبل أن يرى وليده النور:

- إن حال الحول وما بريّت بالنذر تراني أخاف الجايات.

أمسكت رملة بثياب الرجل الذي يتأهب للسير وحيداً إلى الحجاز، ثم ردت كفيّها وجلى، أي غضب يمكن أن يحل بهما إذا لم يف الحارث بما وعد!! استشعرت أن سلامة حملها واستمراره مرهونان بوصول الحارث إلى الأرض المشرّفة، فتجلدت تودعه وتوصيه بنفسه خيراً، أرادت أن تحمله دعاءً يقوله وهو يشد أستار الكعبة إليه، إلا أنها أجفلت، واكتفت بصمت رقيق انساح طمأنينة في صدر الرجل القلق.

وقفت عمشة إلى جوارها تشد أزرها، وتنتخي برعاية ضيفة التوايه، إلى أن تمكن الحارث من المضي في رحلته.

طالت الغيبة ورملة تقلب ناظريها في السماء، تعد استدارات القمر... واحد.. بركة.. اثنان بريكه... ثلاثة.. أربعة.. خمسة... ستة... سمية... يا لله الأمانة... قبل أن يدخل الشهر التاسع تتوجس رملة وتتطير وينخلع فؤادها على الغائب الذي لا يعود.. ولكنها تعد مع اكتمال القمر التاسع... نسعد من الله*

يشقق القيظ رمال الصحراء العطشى، وتلتهب صخور الصوان فلا يطيق المرء وطأها بقدميه، وتنتظر الشياه والإبل ذابلة ذاهلة فرج السماء.

عندما شعرت رملة بأوجاع الطلق، شدت عصبة قماشية سوداء بين أسنانها وتأوهت، تذكرت غيبة الحارث فبكت، همست عمشة.

---

* مسميات الشهور القمرية في البادية.

- يارب الغروب، لا تضيع المطلوب، وكلي ربك يالنشمية، الغايد علومه معه.

اشتد الوجع وتمزقت العصبة تحت أسنان المرأة التى استشعرت عذاب الجحيم، خارج الخباء ركضت أمة صغيرة تبتغي الداية للولادة المتعسرة.

تهامست البنات:

- رملة ما تربي إلا إذا رد حليلها.

وقالت عليا:

- وليدها منحبس مثل مي المطر.

قال دايود:

- هذا وسمي آخر الغيث، وما يرتجى منه قطر.

رغم ذلك قال الحكيم:

- في السماء ريحة غيث.

تجمعت البنات في الساحة التي تتوسط حومة المضارب، نظرن إلى الأرض العطشى، ووجوه الرجال المتعبة، وعانقت عيونهن الكحلى الأفق الممتد بلا غيمة تنبيء بنبأ، راقبن توجه الرجال إلى خيمة الحكيم، وشاهدن عصاه التي امتدت فوق رؤوس الرجال فانتظموا في عقد واحد، يستسقون السماء ركعاً وسجوداً، شاهدن الدايه تدفع جحشتها الهزيلة العطشى إلى خباء المرأة التي ما عادت تنطق، وقد تغلق رحمها على ما فيه، وانتفض جسدها.

استدارت عمشة كي لا تنظر فعل الداية التي هتفت بجنون:

- مغلَّقة كنها البكر.

سحقت عشبه «كف مريم» السحرية، ورمت بالمسحوق في وعاء نحاسي يغلي بمائه فوق أثافي المجمرة، ملأت كوزاً بالشراب وأرغمت المرأة على تذوق مرارة الدواء، ثم مسحت بما تبقى منه فرج رملة، ومدت يدها المدربة تجوس في الرحم تفتح درباً إليه، شهقت رملة وتشهدت في ضميرها، وصرخت الداية:

- خاف الله ما بيها جنا.. أي وينه؟؟

لم تستسلم رملة لخيبة الداية، استجمعت أنفاسها لتتكلم:

- والله بيّ.. أحسه بقليبي، بحشاي.. من يوم مـا أودعه الحارث حسّيته.. بيّ..

أشفقت عمشة من قسوة الطقوس، إلا أنها طالبت بإعادتها، لعلّ..

- وكدي زين يا حرمه.. ولك البشارة.

عادت اليد الخشنة القاسية تجوس جوف المرأة.

تعالى غناء البنات في الفلاتة، وهن يتقاطرن في حركة دائرية مهووسة.

وقد زيّن رؤوسهن بالسعف، وتركن شعورهن تترنح على أكتفاهن، مقتفيات أثر الشمس من الشرق إلى الغرب، مرددات:

يا أم الغيث يا دايـــم	بلي ازريعنا النايـم
يا أم الغيث يا ربـــي	بلي ازريعنا الغربي
يا أم الغيث يا منجد	بلي جوزة المقعـــد
خلي سيلها يرعــــد	خلـه بالسهــل يـدع

لمحت «عليـا» الغـزالة العـرجاء تحـاذي المضـارب، تسللت من حـومـة البنات، واقتربت من خشف الغزال الصغيرة الشقراء.. مسدت ظهرها فلم تنفر وكسر يعيق حركتها.

ظهرت أم الغزالة فجأة، ارتدت الصبية خطوة، وهتفت:

- غزال!! شر وزال.

تبادلت الجميلتان النظرات، الظبية، بقرة المها وعليا أخت الشيخ تسمرتا الواحدة قبـالة الأخرى للحظات.. اسـتدارت الظبيـة بخطو قلق تبتـغي هرباً، ثم تلكأت.. حـامت حول رضـيعـتهـا، ففـهمت «عليـا»، أخلت لهـا السبـيل عائدة إلى حلقـة المغنيات.. أبصرت بهـا عن بعد تحتك بصغيرتهـا، وغنت مع البنات، يا أم الغيث يا ربي.

جر الرجال عباءاتهم، عائدين من كهف الحكيم الذي ظل واقفاً فارداً عصاه، هز «عـقاب» يده الصـغـيرة، فـانفلتت من كف الحكيم، وتبع الرجـال بخطوات ثابتـة،

أوشك «عودة» أن يرده، ولكن وقفة الحكيم المحايدة جعلته يترك الصغير ليقتفي أثرهم إلى المضارب.

وقفت الداية لاهثة:

- مابي فايدة، وكلتها برعاية الله.

ضغطت «عمشة» وجهها بكفيها، ومسحت عينيها المرهقتين:

- والنعم بالله.

تجاوز «عقاب» الصغيرات الراقصات.. يا أم الغيث يا منجد... دلف خباء الولاّدة، ورغم أن الداية وعمشة فزعتا لرؤيته، لكنهما لم تقويا على التفوه بكلمة، استهانتا بابن الأربعة أعوام، وذهلتا بما اعتراهما من وجوم.

اقترب الصغير من رملة، نظر في عينيها، وبالكاد تبينته وروحها تفرفر، ركع إلى جوار الرحم المنتفخ الذي يأبى انفتاحاً، مرر كفه اللينة على الكرة المتشنجة الكبيرة، فاشتدت تقلصاتها، رفع يده، وابتسم للنسوة، ثم غادر الخباء، خفيفاً، غامضاً، كما دخل، صاحت رملة بالشهقة الأخيرة، فرمى الرحم بجناه، وسمعت المرأتان صرخة الحياة أولاً، ثم شق البرق صدر الفضاء وزمجر الرعد.. وانهمر المطر.

سخت السماء بمطر وفير، وتضوع في الأرجاء شذى زكي كأنه المسك.

وواصلت الصبايا بنزق بهيج رقصهن والغناء.. يا أم الغيث.

سجد الحكيم عند مدخل كهفه، وعاد «عقاب» بخطى وئيدة إليه، ولمحت «عليا» الغزالة تسحب رضيعتها العرجاء تحت أستار خباء الوالدة، في حين راحت الأرض الظمأى تغب الماء غباً، فيسمع لولوج الماء في أثلامها شهيقاً، وأصاب الإبل والخيل والنعاج مس من فرح، فتواثبت دون ضوابط، صهلت وثاغت وحمحمت وزعقت، رفعت «عمشة» المولودة بين يديها، وتمتمت:

- سبحان الخالق.

شدت الداية سجف الخباء، وقالت بصوت مبتهج مسموع:

- عينوا يا وجوه الخير، هاذي «مزنة بنت الحارث» جاتكم بالمطر..

تبسمت «رملة» موهنة، وهمست بدعة:

- «مزنة»!!

ثم نظرت في عيون «عمشة» راجية:

- وداعتك «مزنة».. وديعتي عندكم، احرسوها بألطافكم.

ظلت الأجفان مفتوحة، حتى أسدلتها «عمشة» بأناملها، وبكت، شاع في القبيلة أن للطفل المجهول الغامض «عقاب» يداً مباركة، وأقسمت النسوة على أن المولودة هي التي جاءت بالخير للديرة غيثاً، وفقعاً جمعته الصغيرات في شلايا ثيابهن الفضفاضة، تلك الرضيعة اليتيمة التي تفوح بالعطر وكأنها زنبقة برية، لم ترتضِ لبن أي منهن، كن يلقمنها حلمات أثدائهن مخلصات سخيات، فتزم فمها الوردي المدور، وتشيح برأسها عازفة، تخوفن أن تلحق الرضيعة المتأبية بأمها، أو مصير أبيها المجهول.

بدلت «عليا» التصورات، وأدهشت الحي عندما بللت إصبعها بحليب الغزالة، ودستها في فم الرضيعة، فتلقفتها تلك جائعة ملهوفة، وصارت «مزنة» رضيعة الغزالة.

أرادت «عمشة» أن تربط الغزالة إلى أطناب الخيمة، لكنها انتبهت إلى أن الغزالة مقيمة لا تروم فراراً، فتركتها حرة تغيب وتظهر كلما جاعت «مزنة».

طارت «عليا» بالرضيعة فرحاً، وكلما اقتربت منها داهمها عبق المسك، فانتشت وهتفت:

- معطرة!! يمة.. والله معطرة.

حجرة شهباء تنهب الأرض نهباً، كأنها شعلة نار، والحجرة تدهش النظار، إن طلب منها الجري عرفت، وصاحبها يلتقط النجوم، مضمرة الخواصر، مليحة الحوافر، واسعة المناخر، حسنة الباطن والظاهر. لها أصل فاخر، وغرة مثل الهلال الزاهر، صنعة الملك القادر، تربية العرب أصحاب المفاخر، كأنها قطب الفلك الدائر وراكبها في أمان من كل عدو ومضاد ومكايد ومعاند، لم يكن في ذلك الزمان في خيول العربان أجود منها ولا أسرع، ولا عاين أحد شكلها، وكأن الريح من جريانها والرعد من صهيلها والصباح من غرتها فيما تجاوز الوصف والسواد الحالك من عينيها، والشمس تشرق من بياض نواصيها كأنها القضاء المنزل أو الريح المرسل، سليمة من العيوب، محبوبة للقلوب.

من «سيرة الأميرة ذات الهمة»

اضجعت «الأصيلة»، واقـترب «دايود» مشفقاً، فاض الحنان من عينيـها المتعبتين ثم أسبلت جفنيها واستسلمت..

أنَّت «الأصيلة» مرتعشـة، حمحمت كالحشـرجة، فأقعى «دايود» وراءها وربَّت ظهـرها فابتلت يده، مـسحـها بثـوبه، وهو يتفكر إذا مـا كان مـجدياً اسـتدعـاء من يساعده على تـوليد الفرس.. ولحظة عزم على الأمر ووقف، صـهلت بقوة، ثم ران صـمت قصيـر أوقف أقدامه عن السـعي، استـدارت «الأصيـلة» تبغي الوقـوف، ترنَّحت واعتدلت، وسمع أحشاءها تضطرب لافظة وليدها.

يقـسم «دايود»، أن برقـاً التـمع في الأفق لحظة مـغيب الشـمس في قلب ذاك الصيف الحار، وانزلقت المهرة المخضبة بالدماء من رحم الأصيلة، واستقرت واقفة، لم تنثنِ قوائمـها تحتـها، ولا انعـوج جيدها، اسـتقرت كـأنها سيف سُل من غـمد، التمعـت كنصل الذهب. ورشقته بعـيون واسعة وأهدابٍ كـثيفة، فبـهرته، ثم هزت رأسها الفتان، ونضت عن جـسدها الأشقر اللامع دم الرَّحم الطازج، وعادت تنظره بالعـيون الكحـيلة، ارتجف المعلم وهو يتأمل النـجمة البـيضـاء على الجبين العـالي، وصاح:

- سبحان فالق الصباح.. سبحانه.

اقتربت الأصيلة بحميمية من مهرتها، فما عطفت المهرة ولا تلمست طريقها إلى الضرع ذليلة، ووقـع ثدي «الأصيلة» في فمـها الذي امتـد إلى الأعلى تابعاً لحـركة الرأس المتطلعة.

«عمشة» أول مـن رأى المهرة بعد «دايود»، تأملتها مسـاءً في ضوء قبس من نار، حملته على عود من خشب، ووقع سحر عيون المهرة في قلب المرأة، التي قالت:

- بنت الأصيلة والأبجر نسميها «الكحيلة».

قال الشيخ مهدداً متوعداً الصغار الذين تجمهروا لرؤية المهر الجديدة:

- ترى أياً من الضعوف يقرب «الأصيلة» و«الكحيلة» ما يلومن إلا نفسه.

ذبح الشـيخ النعـاج لمولد «الكحـيلة» وضـمخ بطن «الأصـيلة» ووليـدتهـا بدم

الذبائح، وحتّى به القوائم، والنواصي، والغرر، فأكل البدو من خير الذبائح حتى الشبع.

لم يجرؤ الصغار على الاقتراب من الفرس ووليدتها، تمنوها، وحلموا باعتلاء ظهرها المقوس كالهلال، وبدت الكحيلة شموصاً فاتنة، تدور حول أمها بخيلاء ودل، ترمق اللاعبين في الخلاء، تهز قوائمها بعنفوان، وتصهل بنزق وغرور إذا ما حاول أحد الفرسان ربط أي من أطرافها إلى وتد، استعصت الكحيلة على الإمساك والرسن.

وقال الشيخ:

- خلّوها.. بعدها غشيمة، لين تكبر تنقاد.

وحده «عقاب» يقترب بهدوء، فيبتسم السايس، وهو يرى الفتى يحاوم كأنه النسيم، ويرمق بعين الحب المهرة الشموص.. يدعوه:

- قرب أبجال.

ويقترب «عقاب» أكثر.. يمد يداً مترددة إلى ظهرها، تحس بلمسته فتنفر بصهلة دهشة قصيرة، وبخطوة خيلاء، تقف على بعد خطوات منه تراقبه، فتدمع عينا الفتى ولهاً.

صارت الكحيلة تبعد المرعى، كبرت وازدادت خيلاء.

قال الشيخ:

- يكفاها.. صارت مطمع للعربان.. قيدوها.

تكالب عليها أربعة فرسان، حاصروها، وهي تدور بينهم، تطاير الشرر من العيون المنذهلة، حامت في دائرتهم المغلقة، أثارت العجاج حولها، فما ارتدوا، جاحت كأنثى حين أمسكوا قوائمها، وشدوا السلاسل حولها، وثبّتوا السرج واللجام، وتململت أمها في مربطها، ونكست رأسها، بكى عقاب، وعيون المهرة ترقب بهلع الحركة الدؤوب حولها، راحت تتقافز في موقعها، وتحك قوائمها بالأرض بعنف، فسقطت على جنبها الأيمن، وتدحرجت فوق الرمال.

وصرخ دايود:

- خافوا الله.. غير تذبح روحها.

وعقب الشيخ آمراً:

- اطلقوها لا يندق عنقها والا تنكسر ساقها.

لما طار قفل الحديد عن قائمتي الكحيلة شبّت كأنها النار، استقامت بجسدها ولوت جيدها القوي وانطلقت لا تلوي على شيء، صهلت كل الخيل المربطات إلى الأوتاد والحديد،وأرغت الإبل، وانزاحت النسوة عن مداخل المرابط والخيم، وراح الأطفال يرمقون المهرة التي جنت من وراء أستار الشق، ثارت زوابع الرمل فأغشت العيون، وتعالى صياح الرجال:

- لو طارت هالفرس، مابي مثلها بالديرة.. حاصروها.

والشيخ الذي تملكه الذهول، صاح واعداً:

- عليها وجه الله.. من يقبض الكحيلة ويروضها تراها أفرسه.

وسط عجاج الرمال، وصياح الفرسان، وانطلاقة خيلهم خلف الفرس الشموص، يلمح عقاب ذيلها حيناً أو رأسها المتعالي الأغر حيناً، ويطير قلبه وراءها، وتزعق روحه.. دعوها.. ما هي مطية لكم، لكن صوته ينحبس في صدره.

ساعات، والكحيلة تدور وتطارد في كر وفر.. والفرسان يناوشونها، يستريح جمع، فيتقدم آخرون، وهي لا تستريح، صفقَ دايود كفيه مفجوعاً:

- غير يذبحوها قبل ما تلوح نجوم هالليلة المنحوسة.

وسط الأغبرة، مشى عقاب هادئاً، تقدم بثبات وعزم ودون جلبة، وقف وسط الساحة مستخفاً باندفاع المهرة الجموح.. صاحت امرأة وهي تشير إلى الفتى:

- المخبول.. المخبول..

في الفلاة، بالكاد بان الفتى للناظرين طيفاً في فضاء أبيض مغبر.

حوصرت من الخلف فاندفعت إلى منطقة القلب سهماً مارقاً، وزوبعة لا تحتمل توقفاً، وجماحاً لا يكبح. بين رفة هدب وأخرى، صاح صائح:

- جنب يالعجي لا تدهكك.

فما تزحزح الفتى، وفوجئت الكحيلة بقامته الضئيلة في دربها، فارتبكت، طارت في الهواء منتصبة رافعة قائمتيها الأماميتين بحيث صار عقاب تحت رحمتهما على الأرض، ثبتت الأقدام الخلفية ساحبة وراءها خطاً غائراً في الرمال الساخنة، حمحمت ورقصت في الهواء، شاطت مستديرة إلى الجانبين تباعاً ثم استرخت بروية وجعلت تهبط تحت مرأى عشرات العيون المفجوعة الذاهلة، جنبت يسارها بمقدار واستقرت إلى جوار الفتى، وسكنت. مد عقاب كفه ولمس بحنان خصلات الشعر المبللة على الجيد المعترقة. فلانت الجيد ومادت، ومدت الكحيلة رأسها باتجاهه، انحبست الأنفاس وعقاب يعتنقها بذراعيه وقد أرخت جيدها صوب كتفه، ومال يداعب الغرة المبتلة فوق الجبين اللامع. أسبلت جفنيها فأسبل، وونَّت ونَّة الشوق فونَّ..

قال الشيخ:

- من رَوَّضَ الكحيلة فهي أفرسه.

وقال دايود:

- من قبل والكحيلة خيته، ما هو راضع عرق الأصيلة.

ابتسمت الطفلة التي وقفت بين البنات مسحورة هائمة، وراحت أناملها تتخلل جديلتها المطروحة على صدر لم يعرف الحمائم بعد، تفك بأصابعها عقصة الجديلة، رويداً رويداً، فيسرح شعرها الغجري فوق الكتفين، وإذا شدتها «عليا» لتعودا إلى الخيمة، لوت عنقها بحبور ورمقته نظرة أخيرة، في قلبها موال لا تعرف كيف تُعَبِّر عنه.

- يا ولد... الخيل تعرف الخيال، والفرس تعرف الفارس...

* * *

الكحيلة محط حسد الفتيان وعشقهم، كبرت بمقدار، وطال عقاب بمقدار، جاءا يوم عرس «علياء» كأنما نداء يناديهما، تبختر الفرسان في العراء، وعيون الصبايا السوداء ترقب الأجساد الممشوقة فوق ظهور الخيل، وحين فز البعير الجهم وتثنى

ينوء بحمل هودج العروس المزدان بالألوان، ازداد هرج الرجال واشتدت غلواؤهم، وكل فارس يظن أنه يقع في عين حسناء، تطايروا حول الهودج، وتصايحوا، وطارت ضفائرهم خلف عباءاتهم مع مرور الريح في أعطافهم. اشتد حماسهم حين غنت البنات، وسار البعير خطوة واحدة قبل أن يطل فرس «عبطان» وفي عينيه وجدٌ لا يخفى ولا يحفل بإخفائه، فاليوم تصير الحبيبة «عليا» عروس التوايه حليلة له، تقدم أخوانه أولاد الجازي يستعرضون فروسيتهم حوله، فكأنما هي دعوة لفرسان التوايه للتحدي، وتحولت المضارب إلى ساحة عرض ومهرجان بهيج، عندما صاح «عناد» ابن الشيخ عودة:

- هاتوا الأصيلة.

أدرك الفرسان أنه يُزيِّن العرس بلعبة الرجال المحببة.. الفارس والراية، وضحك «عودة» مستبشراً، أعلن أن اللعبة ابتدأت، فحمل الراية في يمينه، وامتطى الصقلاوية، لكزها فاستهمت، تجاوزت صفوف الفرسان واعتلت الكثيب الذي يلوح أعلاه كهف الحكيم كنتوء عتيق، توقفت براكبها، وغرس عودة الراية في رأس الكثيب، ثم هبط عائداً إلى الساحة، وسمع الفرسان صوته:

- من للراية اليوم؟؟.

ماجوا كزبد البحر، وهاجت الخيل، تنحت الإبل عن الساحة وراء المضارب، اصطفوا بأمانة نبيلة إلى جوار بعضهم، وقد تقدمت الصبايا، نثرن شعورهن فخلعن ألباب الرجال، رفعن أيديهن ملوحات، وأطلت «عليا» من وراء ستارة الهودج الحريرية، زاحمتها «مزنة» على النظر ثم لم تطق صبراً، فانزلقت من جانبها، قفزت من أعلى الهودج إلى فضاء الصحراء، ومثل فراشة ملونة استرعت انتباهه، تطاير شعرها وهي تجتاز المسافة بين الهودج العالي والأرض، فاصطادت خافقه، سمع صهيل فؤاده عنيفاً، واستوت «مزنة» فوق حصباء الصحراء غزالة برية، عن بعد التقت العيون والتمعت، والصغير الذي كان يمسك رسن الكحيلة غير عابىء بسباق الفرسان إلى الراية، توثبت روحه وتدفق دمه، واعترته نشوة، وبخفة الريح

امتطى صهـوة الكحيلة التي اهتزت وجفلت، إذ مـا كان عقاب يمتطيـها أبداً ولكنها استُثيرت كما راكبها.. قادها إلى صف الفرسان فانقادت، ونظر الرجال إلى الفرس الجموح العنود تقف إلى جوار الأصيلة، ضحك «عناد» فارس الأم:

- اليوم يوم الأصيلة وإلا بنتها يا عقاب!!

قال في قلبه، اليوم يومك يا «مزنة»، زينة البنات وزهرة الصحـراء. نظر الفرسان باستهانة إلى الفـتى الذي اندفع إلى صفـوفهم. عـيناه إلى جوار الهـودج، أدركوا مـغزل الهـوى وما غزل.. هناك غواية تدفع بالفتى إلى الشطط، تبسموا كلّ عن حرقة أصابته مرة.

أعلن «عودة» بدء الانطلاق، فنهبت الخيـل الدرب، وتطايرت الحصى الصوانية مثـيرة مـا تحتهـا من رمال، تقـدموا والراية تومض من بعـيد، نداء لا يخـيب، تنتظر حاملها ولم تعد الصبايا قادرات على تمييز الخيل والفوارس.

أدرك «عناد» أنه والأصيلة يجتازان الجمع فـازداد توهجاً، وعندما اعتلت فرسه الكثيب، التف بها حـول الراية، ومال جسده باتجاهها، وأوشكت يده علـى انتزاعها لولا أن يداً صغـيرة ثابتة قوية سـبقته وشدتهـا من مغرزها، واستـدارت «الكحيلة» بفارسها حاملاً الراية بين دهشة الفرسان.

ترجل الفتى عن صهـوة الفرس وربَّتَ عنقها ثم مد بالـراية إلى مجلس الشيخ، غرس عقاب راية الفرسان أمام الشـيخ بقوة، فخرقت حصباء الأرض وتوغلت في رحمها، فثبتت في موقعها كعمود حديد صلب سامق، ورفرفت مع خفق النسائم..

هز الشيخ رأسه مبتسماً:

- فارس يا عقاب.

قال «عناد» وهو ينـظر الراية التي طارت من يده والفتى الذي انتـزعها، ويتـذكر العيون التي حكت منذ لحظات:

- عاشق يا عقاب!!

احفظ وصاتي لا يا مالك أوصيــك | لانهاك عن عملة الشرك لانهـــاك
صديقك اللي من زمان مصافيـــك | لنهاجرت بك أحوال لا تقول لـولاك
سهم المنية يصيبك، لو تخبيت يرميك | وسهم الخطا لو تبينـت ماجـــاك

«من الشعر الشعبي في البادية»

أمحلت.

تشقـقت الأرض عطشاً، هزلت الدواب ونفقت تبـاعاً، وقَلَّبَ الشيخ عـينيه في الفـضاء، وسـياط الشـمس تلهب جـسد الصـحراء.. كـأنهـا ما هي أرضنا، تفـور وتطردنا!!

قال الشيخ:

- شيّلوا:

وشيّل من استطاع، حَـمَلّوا الإبل الصبورة ببعض المتـاع، وتلكع الفرسان، وفي العيون مطلب... الغزو يا شيخ!!

البدو الذين تعودوا عراك الحياة، وشالوا وحطوا مثل طيور مهاجرة، يدركون أي فزع يثيرون إذا ما أقبلوا بخيلهم نحـو القرى.. ويدركون أي غنيمة يمكنهم الحصول عليها من المزارعين الذين حـصدوا زرعهم وعمروا مخازنهم بمـؤونتهم، لا يخافون إلا غزوات البـدو وزيارات الجباة الأتراك التي تتـركهم جوعى، تحسـر بدوي لائماً نفسه:

- امحلت.. هزل الطرش وضاقت الديرة.

- ويش علينا لو زرعنا مثل أولاد الجازي!!!

- وش بلاك.. زرعوا!! ونغنم.

عندِ المغيب. و«عودة» يتأمل دِلال القهـوة الأربع ترتكز على جمر الموقد، ويشتم العبق القـوي للبن المحمص وهو يفـور فوق نيران الخـشب والشيح، يستـعرض في خاطره غـاراته التي وصلت تخوم الشـام، وأقاصي البلاد في شـط العرب، نظر إلى رجاله، فكَّر وقدَّر.. لو أن المحل ترك أرضاً لسعى إليـها، ولكن جود السماء انقطع عن البدوي، وفـاز الفلاح باحـتسابه حق هذا اليـوم، والبدو من حـويطات الجازي تبـعوا خـطى الزارعين فنجـوا من جوع المحل.. كـم قريبـة هي ديرة الجـازي!! في متناول اليـد ديرة ابن العم!! وأين هي التي ينتـخون باسمـها؟ عروس الـتوايه التي كان ارتباطها «بعبطان» نهاية عهد من العداوات.. «عليا» كأنها خنجر في صدره إذا

حركه، أوجعه.. فكَّر الشيخ وقدَّر.. «لعليا» قلب ينفطر.. و«لعليا» ناموس وعهد رضعته مع لبن «عمشة».

– الفجر نغزو.

استدعى الشيخ ابن اخيه «زعل بن مطلق» إلى خباء «عمشة» التي راحت ترقبهما والقلق ينهش فؤادها، أسرَّ إليه، أن إذهب وأتني «بعليا» هذا المساء فلا تحضر الغزو.

طار الرسول إلى أرض الجازي فهشت له «عليا» واعتنقه «عبطان» مرحباً. تضاحك «زعل» وهو يهدهد وخز الخيانة في قلبه.. يوقن «زعل» أن أحوال أولاد العم أفضل من أحوالهم، ويتلمس للغزو عذره ومنطقه.. سهر مع الرجال، رقصوا، فدَّح معهم، ومن ضوضاء الاحتفال تَسحَّب إلى خبائها.. وقرأت «عليا» خبراً في وجهه.

– شِي علومك؟؟

– خَلي الملامة يا «عليا». الشيخ معزم يغزي ديرة حليلك الفجر، قومي بساع، يبغاك تردي معي ووليدك.

تطرق أخت الشيخ حائرة، ثم ترفع رأسها حابسة دموعاً في العيون الواسعة.

– ما ودي أرد معك، أرد ويَّا «عودة» يوم يغنم في غزوه، والصباح رباح.

تردد زعل، وتلفت بحيرة، فوقفت حاسمة، رفعت ستار خبائها تفتح له درباً للخروج:

– الله يسهل عليك.

أسقط في يد زعل، وعندما وقف متأهباً للانصراف، أمسكت «مزنة» طرف عباءته، ضحك متلهياً عن أحزانه:

– أدري ويش تسألين يا صبية.. الفرسان تصل الفجر إلا ذاك الشرود «عقاب» هَجَّ صوب الحكيم، يحشي راسه بهرج يخله يقصر عن المرجلة.

عتبت عيونها الحزينة. ونكست رأسها، فمسح جديلها مُتلطفاً معتذراً:

- لاتديري بال، أشهد إنه رجال وإن ما قلط في غزو الرجال.

غـاب قمـر المساء، وتمددت «عليـا» فوق فـرشهـا وجـسدها يتلظى، هي نيـران الوجيعة، اقترب «عبطان» وتحسس الغدائر المفكوكـة، تمسح بها، فاستشعرت لهفته، أفزعهـا إقباله فاستدارت كـالنائمة، تسمع قرع طبول الحـرب في صدرها والرجال ينتخون بها.. «أخـوات عليا»!! ماذا على «عليا» أن تفعل إذا ما أدبر صـفاء السماء واكفـهر وجهـها؟ ذرفت دمعـة مسحـتها في فـراء الجاعـد تحتهـا، وهزها «عبطان» وضمها، فمنحته جسد الحبـيبة، وروحاً ترتجف، وإذا ما أغفى مطمئناً، شلعت قلبها ودفنته مع مخاوفها، وصارت بنتاً للبداوة.

- السما ارتجت من قولة ياخيّ.

هكذا حدثت «عليا» نفسها وهي تتحرك جسداً مريباً، والقوم نيام، تجمع مفاتيح القيود الحديدية التي ربط بها الرجال قوائم الخيل تخبئها تحت بساط «مزنة» الحائرة، تحفر بكفيهـا وتودع المفاتيح في الحفر العشوائية، ثم تمد فوقـها البساط ممهدة لتكون الديار تحت إمرة «عودة» فما نفع الخيالة دون الخيل!!

لم يتبين الخيط الأبيض من الأسود بعـد، ولكنها ملأت روحـها بوجه الحـبيب يغط في نومه، ما هي بالخيانة يا من له قلبي.. ولكنهـا قولة ياخيّ، ستفهم! وتعذر! وتسـامح! بكت «عليـا» حتى إذا مـا سـمعت صـهـيل الخيل الـقادمـة، وأيقنت أن الغازين صاروا وسط الديار، وهَبَّ «عبطان» مفزوعاً من نومه، أولته ظهرها، فإذا ما خرج من الخبـاء ملتهجاً، حلَّت شـعرها، ووضعت رضيـعها فوق سـاعدي «مزنة» توصيها بالفرار في درب آمن يقود إلى ديار «عودة».

ركبت «عليا» عـطفتها، وتهادى الهـودج الذي يعرفه رجال «عـودة» واشتعلت دماء الفـوارس بالنداءات وهم يرون شعـرها الحالك يتطاير خلف الأسـتار، بالكاد تمكن «عـبطان» وأولاد الجـازي من امتطـاء الإبل، وقد أدركـوا هوية الغـازين وهم يرون «عليـا» مـحلولة الشـعـر، وكـأنها مـا كـانت منهم لليـلة خلت، تنادي وسط الرجال.

- يا ابو عناد يا عْزي وان جتك جموع تفزِ.

ويرد صوت عودة متحمساً:

- أنا أخو عليا.

تخاطف الغازون غـدائر القمح ومخازن المؤن، وسـاقوا الشياه أمامـهم، واجتاز المتحمسون أخبية النساء فاشتدت فـجيعة «عبطان» وهو يتابع خصلات شعر «عليا» تذروها الريح مـن أجل الغـازي! ويطعنه صـوتهـا المبـحـوح.. مـاذا تفـعل أخت الرجال؟؟ إلا أن تساند الرجال!!.. أفهم يا «عليا» بعقلي ولا يفهم قلبي.

امتشق «عبـطان» بندقيته وأطلق غير عـابىء من يصيب، وفي لحظة فاصلة هوى جسده مجندلاً برصاصة، شهد الشهود أن راميها كان «عناد» ابن «عودة».

للصحراء ناموس تعرفه وحدها.

أطفأ «عودة» ناره، وصفَّ دلاله الفارغـة حداداً على ابن العم الذي قُتل، وتأمل الجمر الذي صار رماداً والغزو الذي صار مـوتاً.. رأى دموع «عليا» وذهول عينيها، ولم يجـسر علـى النظر إلى رضيـعـها، وعنـدما هم «عناد» بالـكلام، أشاح الشـيخ بوجهه إلى جهة مخالفة وهمس بصوت أبحٍ:

- لسانك لا يخاطب لساني.

ليلتها قال الحكيم:

- الصحراء حدأة أكلت أولادها.

وتهامس البعض بمقولة «دايود» مُرتعشين:

- الذباح ينذبح ولو بعد حين.

وأجهش «عناد» ملتاعاً بخصام أبيه:

- وين أروح.. أهيل السكن ع راسي، ما عقب الجوح غير النوح.

في الليلة التالية، تقدمت المأساة بتقدم أولاد الجازي داخلين الأراضي الفاصلة. تصدى لهـم الرجال، فعـادوا يحملون جـسد «عناد»، وتوارى دايود خـجلاً من

نبوءته، وتوارت "عليا" خوفاً مما يتنازع روحها من مشاعر متناقضة متباينة، ونظر «عودة» بعيون الفجيعة إلى كبده، الفارس الذي عَلَّق عليه آمال المشيخة.

عصفت الريح فجأة محملة بالأتربة، فعشيت عيون الرجال، وتناثرت شظايا الشيح المشتعل تحت أقدام الرجال المطرقين في مضافة الشيخ، انشب الشرر في أثوابهم فأطفأوه بأيديهم صامتين، وجلين راقبوا «عودة» يسحب جسد «عناد» القوى الذي صار جثة ثم حجاباً بين النار والريح ليوقف تطاير الشرر، تبادل الرجال النظرات، وجثة «عناد» ممددة مدراة للنار، عصف الحزن بقلوبهم وتعلق في الحناجر وما أفصح، و«عودة» يتحرك بهدوء غامض، يرفع جربوعاً اصطاده أحدهم ويرمي به إلى النار. وإذ تفوح رائحة اللحم المحترق، يرفع «عودة» رأسه وينظر جسد بِكْره الفارع المسجى ثم رجاله بنظرات موبخة.. ويبح صوته الذي يتعمده قوياً واضحاً.

- علامكم مبلمين؟ الغزو خلص.. غزينا وردونا.. خلصنا.. و«عناد» عديته جرو وقع من قطب البيت.

أغلق «عودة» درب الثأر، رجل برجل، وغزو هو شيمة العربان، ولكن الدنيا سارت إلى محل أقسى.

ذوت أصائل الخيل، وجَفَّتْ الضروع، أكل الناس الشعير إذا وجدوه، جربوا حتى سحالي الأرض وحَيَّاتها، حتى هذه نفقت تحت صهد القيظ، سلطت الأرض عقابها على من يرفعون السيف، وصارت الصحراء الممتدة امتداداً للصحراء اللاهبة في النفوس.

- يا «عقاب».. ما يطّهر الأرض غير هذا..

ضم يده إلى موطن قلبه:

- وهذا.

ثم أشار إلى سيف «عقاب».

- يا «عقاب» السيف في موضع السيف عز، والندى في موضع الندى شهامة* وغير هذا وذاك عار.. و«الإنسان أشبه بنفحة، أيامه مثل ظل عابر»* لايتركها الحر للعار.

لم يخرج عقاب لغزو أبداً، السيف في موضع السيف.. هكذا علَّمه الحكيم، وفي الأمسيات الحارة حيث لا نسمة، ينظر الفتى إلى السماء ويتطاير لهفة إلى نجمة الشمال الأليفة.. كم هو صعب المرقى إليك.. إلا أن قلبه يواصل الصعود.

حين يضحكون في القبيلة قائلين:

- العجي ماله في الحرابة.

يهز «عودة» رأسه مستنكراً:

- تراكم ما تعرفون بعد.. «عقاب» له يومه.

يشدد المحل حصاره في البوادي، فيتحرك «عودة» برجاله شرقاً، عَلَّه على ضفاف النهرين يجد غنيمة، وفي صباح شتائي جاف يشتاق البلل، تشققت الأرض وتبدت الشمس بيضاء لافحة، واجتمع صقيع ويباس، تلهى صبية الحويطات بمنظر المرأة الغريبة التي وصلت الديار على ظهر ناقتها مزودة بالماء والزاد، معتمرة قبعة صغيرة، وقد ارتدت بنطالاً كرجال المدن الكبيرة. وأخفت عينيها وراء نظارة داكنة، رفعتها عندما استعملت المنظار الضخم المربوط بالأشرطة والذي تدلى فوق صدرها الضامر.

نَوَّخت المرأة ناقتها إلى جوار ناقة الإنجليزي الذي راح يلتقط الصور التذكارية لنساء الحويطات عند بئر «باير» وهي تسرسب بقايا مياه قديمة متعفنة. تضاحكت

---

* بيت المتنبي: ووضع الندى في موضع السيف بالعلا مضر كوضع السيف في موضع الندى.

* المزمور المئة والرابع والأربعون لداود.

النسوة ونفلن شعورهن ووقفن للصورة كما أشار الفتى القصير الأشقر ذو العينين الزرقاوين، ونفرت من بين الصغيرات «مزنة» رافضة الوقوف الساخر لعدسة الغريب.

ضحكت الآنسة «غير ترود بل» قائلة:

– "لورنس".. تتسلى!! تضيع وقتك بتصوير النساء؟؟

– أعينهن جميلة.. أليس كذلك؟

– نعم، جميلة جداً، ولكن هذه أهم.

أشارت إلى خريطة «هوغارت» بين يديها، وفرشتها فوق الرمل، فانحنى لورنس ينظر خريطتها ثم ضحك:

– لا تنسي أن تلتقطي لي صورة مع غزلان البر هؤلاء.

هزت رأسها مستغرقة في تأمل الخريطة:

– أنت شديد الرومانسية يا عزيزي.

ركضت «مزنة» مبتعدة، ودق قلبها عالياً وهي ترى الغرباء يلتقطون الصور ويمشطون رمال الصحراء الجافة.

ثلاثة أعوام ما وقعت، عين على زهرة أو نبت أخضر، استفحل المحل حتى زهدت عقارب الصحراء في ترك مخابئها، وتجاوزت غارات «عودة» الديار، وفي كل مرة يعود بالغنيمة، فتتلقفها الأيدي الجائعة وبالكاد تقيم الأود، وكلما حمل الشيخ أحلى الغنائم وأطيبها إلى «عليا»، تمتمت بامتنان مشوب بالحزن:

– مشكور يا خوي.

تغص بالذكرى وتبتلع الشكوى، من أجلها فك الشيخ أخشاب سكة الحديد التي تمر قرب الديار، فبنى من أخشابها عِلِّية فوق الدار التي أقامها من الإسمنت والطوب في «معان»، رفعها فاستشرفت من عِلِّيتها فسحة من الصحراء القاحلة وما افتر ثغرها بابتسامة:

- خيه، ما يحول الحول وانت وحيدة، ثوبك أزين شباب العشيرة إن ربي راد.

تعرف "عليا" إنه يقصد الفتى الوسيم «الدحيلان» يعوضها عن العشق بالشباب والجمال!

- خيتي، اطلعي «البترا» فرّجى همك.

ستنكر أن في قلبها هماً يحتاج إلى تفريج.. لكن بصيصاً من نور لاح لها، فسحة من أمل، رغبة في نزع ثوب الحزن المرير.. لو اعترفت بحاجتها إلى أفق جديد فإنها قد تعثر على فرح ما.. نكست «عليا» رأسها:

- تامر يا خوي.

- زهبوا الخيل والزاد.

بحركة ملولة بطيئة أنهت النساء ربط اليسير من الزاد، أقراص الملّة المخبوزة في رماد النار، وسعن يحفظن فيه قليلاً من لبن النوق، شددنه إلى سنام ناقة صبور، واعتلت "عليا" ظهر الصقلاوية التي ترنحت متعبة، في حين امتطت مزنة الأصيلة، سارت القافلة الصغيرة في رعاية فارسين توخيا السير بعيداً بحيث تستشعر النسوة بحرية حركتهن، مع ذلك فإن الصمت ظل رفيق المرتحلات، إلا امرأتين من العبيد راحتا تثرثران همساً، وكأن صمت الشيخة أمر غير معلن لالتزام الصمت من الأُخريات.

تحسست «مزنة» عنق «الأصيلة»، فابتل باطن كفها، ارتعش قلبها وهزه شوق غامض سري في جسدها، رفعت الكف المبتلة بعرق الأصيلة، قربتها من أنفها وشمت فثملت، ضغطت أناملها الندية فوق لحم شفتيها المشققتين وارتجفت، دخلت في حالة تعبد غامضة، تحاول تذكر حكاية رددتها «عمشة» وهي بعد طفلة عن فتى رضع عرق «الأصيلة»، ولكن الصور تداخلت وغامت في ذاكرتها.

عصراً وصلت القافلة إلى مشارف «البتراء». الصخر الوردي يوشك أن يبوح بأسراره، وقمم الجبال مهيبة بمواقع الحرس والرماة الأنباط السابقين.. مواقع خالية

مقفرة وكأنها أفواه مفتوحة في وجوه الجبال.

سقطت كل من «عليا» و«مزنة» صريعتي وجدهما. تقلبت العصور في ومضة عين؛ مر الأنباط من هنا وجحافل العرب، وأقوام عبرت ومضت وظلت الجبال الوردية شاهد زمن لا يزول، شاهداً يختزن في روحه كل من مروا واندثروا، شاهداً شاهقاً يتخطف القلوب.

أغمضت «عليا» جفنيها، فلاح لها «عبطان»، تنبهت ولامت نفسها، جاءت لتسلوه، فلماذا تستدعي طيفه؟!

أمام الجلال الذي طوق المدينة الصخرية الفاتنة، والشمس توشح الأفق بجرحها، توهجت الحجارة حمراء كجمر مشتعل، شعلة من نار، قبساً من نور، واستكانت الأفراس عابرة بالراكبات «السيق»* . قالت «عليا» في صمتها تخاطب أعماقها: لن أعود حزينة.. كفى.. آن للعشق أن يترجل وآن لجبروت المرأة في داخلي أن يمتطي صهوة الحياة، وهمست «مزنة» لنفسها: آن للعشق أن يبزغ مثل فجر منير.

استولت «البتراء» على روحها شيئاً فشيئاً. والحجر يشع بقوته في المكان فيسلبها جسدها إلى حقل غامض من السحر، شعرت بتوتر أنفاسها وارتجاج نهديها وخدر غريب يزحف فوق فخذيها... وشطحت.. إلى أي زمان عادت؟ عندما وقفت بها «الأصيلة» في مواجهة «الخزنة»* ، تلك التحفة العبقرية التي قدت الصخر وعبرت القرون كأنما هي حكاية، قبضت روحها وابتلعت المكان. تأملت «عليا» الجرة الضخمة التي تتوسط عمدان البناء الذي حفره الأنباط الأوائل، وظن البدو أن كنزاً يعمر الجرة، المعلقة قريباً من حدود السماء، فأمطروها بوابل من الرصاص ولم تسقط كنزها، في حين كانت

---

* السيق: مدخل مدينة البتراء.

* الخزنة: من معالم البتراء.

«عليـا» تتأملهـا، فـإن عيـون «مزنة» اجـتازت الـقفـر الخالي إلا من الكهـوف الملونات، ولمحت من بعـيد «قصـر البنت»* شاهـقاً يعتـلي قمـة جبل بعـيد، شـعرت بما يفـوق ذاتها وكـأنهـا تمضي إلى ما لا تدركـه، ولكنه حيّ فـيهـا... زعـقت روحهـا حتى أخـافـتهـا، أهذه هي المرة الأولى التي تطأ فـيهـا قدمـاها المكان!! أي ألفة مخيفـة تستشعرها؟ ولا تجسر على البوح بهـا حتى لنفسها.. تعرف الدروب التي تـقود إلى القصـر المشعلق في الجبـل، تعرف الألوان التي خطت فوق الصـخر، تدرك أي زرع ينبت على اسـتحيـاء بين الحصى الحـمراء والخضراء والبنفسجيـة، تعرف أن الدرب مرشوم بالليك الأسود المذهل.. قوة خفية تقـودها وتبصّرها بشموس آخر.. فـيخيل إليها أن الخيل غـير الخيل، وما هذه «عليـا» ولا هي «مـزنة». ها هو المكـان يموج بالناس، ثيـاب مـزركـشـة وعمائم، يتحركون أمام عينيها وحدها، يهتفون:

- يا حارث * عطشنا،جعنا، ومملكة يهوذا يرفعون السيف، فهل نرفعه؟

ويبرز الحارث فوق صهوة جواده، يشق بصوته عنان السماء:

- يرفـعونه فنرفـعه، يغـمدونه ولا نغـمده، هكذا تأمنون شـر يهوذا وتصـونون «بترا»، هكذا تظل صخوراً شامخة لا تركع.. هو حرص إلى الأبد.. إلى الأبد.

وتسمع ابنة «الحارث» نحيب الأمهات، تمسح دموعهن:

- الماء يا أميرة، أطفالنا يموتون ظمأ.

تقلب ناظريها بين الفرسان ثم تسير منكسرة إلى قصرها، تقف في البوابة:

- هنا أمـوت وحـيدة، هـنا أحبس عـنكم بهـائي ونور وجهـي، ويصيـر مـوتي عـاركم، ووحدتي سبـة في رجـولتكم، إلى أن يكون منكم رجل يضـرب الأرض

---

* قصر البنت: من معالم البتراء.

* الحارث: أحد ملوك الأنباط العرب.

بسيفه فيشق بحراً، يرفع الماء من عيون الأرض إلى مدينتنا العطشى، فتجف عيون النساء، أما من رجل يضرب الأرض فتخرج ماءً؟ أكون له حبيبة وحليلة.. أمنحه نور وجهي وشوق جسدي، أسبغ عليه محبتي - أما من رجل؟ أما من رجل؟

صرخت «مزنة» على حين غرة، من صميم فؤادها:

- الماي.. الماي يا «عقاب».

والنسوة اللواتي ذعرن بالصيحة المفاجئة، لمحن ظلاً يغمر المكان، رفعن رؤوسهن إلى الأعلى، فكان «عقاب» يمتطي الكحيلة ويقف في موقع الحراس الرماة، شاهدته «مزنة» فابتهجت ولم تخجلها صرختها التي ردد الصدى رجعها، ورفع «عقاب» سيفه في الفضاء وهزه، فاهتز فؤاد الصبية، التمع حد السيف، ورددت السماء، رجع التماعه برقاً، ثم أرعدت، فاقشعرت الأبدان.. وانهمر المطر.

عادت «عليا» و«مزنة» وقافلتهما المحروسة بسيوف الفرسان عبر وادي موسى، شقت الدرب الطويل وسط تماثيل الحجارة المقدودة في الجبال ترمق النساء يدخلن قلب الوادى الملون كما شاءت له أطياف السماء، التي رسم المطر على جسدها قوس قزح بهي.. توقفت «مزنة» ينتابها الشوق مجدداً ويمسك تلابيبها وجد عاصف وهي تلمح في مركز الوسط من وادي القمر أكمة خضراء فريدة، ماذا تسمي هذا البهاء الرباني؟ أي قطعة من الفردوس نسيها الإله في قعر الوادي، عبر الواحات الخضر التي تحيط بعيون موسى، هنا حيث غضب الرب من بني إسرائيل، ونادى كليمه «اصعد إلى رأس الفسحة وارفع عينيك إلى الغرب والشمال والجنوب والشرق فانظر بعينيك ولكن لا تعبر هذا الأردن»*

---

* العهد القديم - تثنية ٣، ٤، ٢٧.

تسلقت عيناها الدرب الموحش المسدود بأغصان راكمها الزمن، وعند أعلى كتف الجبل الحجـري بدت الأكمة بعـيدة مزروعـة بالنخيل كأنما لا درب يقـود إليها، وطارت روحـها المنذورة باتجاه الفردوس المرتجى، وتمنت برجاء عميق لو أنها تذهب إلى هناك، معه.

عـادتا من رحلتـهمـا المبـاركة، وفـرحـاً بالمطر الذي طال انتظاره، زَفّ «عـودة» شقيقته الأثيرة إلى الشاب الأكثر وسامة في القبيلة.

برزوا بجموع غفيرة من الماضي السحيق
وهم باحثون، منقطعون للحقيقة
يغذون الخطو أبداً نحو المستقبل.
أولئك الذين آنسوا في عظامهم قوة،
لايزالون على سفر حتى اليوم إلى ما وراء الموت..
وفي السماء ينادي النفير الأبدي:
«لا تتوقف، واصل السير، تجاوز الحدود».

«طاغـور»

خفقت أجنحة الطائرين محدثة صوتاً كأنه هشيش الهشيم، انخفض طيرانهما بمقدار، وتلفتت الأعناق مرتابة، التمع الريش الأسود على صفحة السماء المكفهرة بغيومها الرمادية، واصل الطائران بحثهما عن ملجأ وهما يستشعران اقتراب الهطل، لم يكن الكهف عند أسفل الكثيب صالحاً إذ شغله راع بقطيعه.

لبد الفتى في عتمة الكهف الرطيب متمتماً جزعاً:

- اللهم اكفنا شر الاثنيين الخويين اللي معهم المطرقين، الواحد يضرب على الراس والواحد يضرب على الرجلين.

ولكنه عندما مد رأسه الصغيرة الملفعة إلى الخارج وأبصر بالطائرين علامة الحياة الوحيدة يحطان قريباً، ثم يصفقان بأجنحتيهما ويطيران، هلل متفائلاً:

- يا سعد من شاف الغرابين بالسما.

اختفيا عن ناظريه وهما يدوران حول الكثيب، فخرج من كهفه مستبشراً بيوم سعده.

سبق الراعي أغنامه، فسابقته العنز مسرعة، اضطرته أكثر من مرة إلى العودة خلفها.

يدفع بالنعاج الصغيرة لتتبعه وجلى. مازالت السماء ملبدة لم تصف منذ أيام، والهواء البارد يلفحه متسللاً تحت فراء الخروف الذي يلف أضلاعه الهزيلة، يأمل الوصول إلى المضارب قبل أن تواصل السماء غمر الأرض بمائها الذي تقطع مانعاً ومانحاً.

كيفما قفز الراعي تقافزت أغنامه في محاولة لتجنب السبخات الرملية اللزجة التي بَقَّعت وجه الفلاة، وحَوَّلت الثرى الخشن إلى طين، وما كان يمكن للراعي الصغير أن يسير مطمئناً كما هو حاله عند صحو السماء، فيسرح عينيه على امتداد المكان، إنه والجو متجهم، معنيٌ بموطىء قدميه وسلامة أغنامه. يصفق كفيه بين الحين والآخر لاعناً يباسة رأسه التي دفعته للخروج في يوم كهذا، إذا لم تمت الأغنام جوعاً، فإنها ستموت برداً على أية حال، فما الذي أخرجه؟ تلاشى التفاؤل

الذي أحدثته رؤية الغرابين تدريجياً في مواجهة السبخات العميقة وهي تصطاد قوائم النعاج الصغيرة الرعناء، ولكن الراعي توقف فجأة، كذلك قطيعه.

يصيخ السمع بأذنين خبيرتين في اقتناص الأصوات عبر الفراغ المريع، صوت أشبه بالحداء.. إنه حداءٌ حقاً، مختلف ربما، ولكنه حداء تحمل أصداؤه دلائل الكثرة، انبطح الراعي لهفة على الأرض، ألصق أذنيه بطينها اللزج، غير موقن أن الأرض تنبىء بنبأ وهي مبتلة، ولكنها فعلت، فقفز عالياً وهو يصفق رأسه بكفه، وقد واتته معرفة أكيدة.

- وي.. وي.. خاف الله.. الحرابة العمومي وصلت ديارنا.. وي..

أيقن أنها أصوات المحاربين الذين خرجوا من «مكة» ووصلوا «العلا». اندفع باتجاه الأصوات كمن يستطلع مهرجاناً، ولفرط لهفته وسرعته تساقطت النعاج في السبخات تباعاً فلم يبد اهتماماً، أخيراً لمح خيالاتهم تتماوج في ضباب الشتاء كلوحة سرابية، توقف لاهثاً وقد جف ريقه، وطفحت عيناه بالدموع.

علت أصواتهم إذ يقتربون، ومازجت صفير الريح، وتموجت مع هبوبها.. قادمون يلفهم ضباب كانون الأول.

قفز الراعي وفؤاده لا يستكين في صدره..

- وربي.. والعود، وربي المعبود.. هاظا الأمير..

كان فيصل نجل شريف مكة الحسين بن علي يزحف بجيشه إلى «الوجه». قبس من روح الثورة التي تفجرت في مكة واستشرت شمالاً وما كان بمقدور الراعي اليافع أن يقدر عدد المحاربين وما يسوقون من خيل وإبل وأنعام، فالخيل تتقدم المسيرة وتتبعها الأباعر متفرقات في المؤخرة، كما تجر القافلة سبعين جملاً غنيمة من قافلة تركية محملة سلاحاً ومؤونة، يسيرون صوب «الوجه» على البحر الأحمر ليكونوا رديفاً للجيش البريطاني في فلسطين، إنها نار الحرب العالمية الأولى التي اختار العرب فيها أن يحاربوا محتلهم «تركيا» بعد مئات السنين من الرضوخ.

تقدموا ببطء والأمطار في تقطعها تربك الأباعر وتعيق الحركة، لوح الراعي

بساعديه وهو يقطع الأمتار الباقية التي تفصله عن القافلة جرياً. وقد نسي أمر قطيعه تماماً، وتنبه المحيطون بالأمير إلى اندفاع الرجل نحو حصان الإمارة. تأخروا في إدراك حماسه وهم يقدرون إنه لبساطته لن يدرك أيهم الأمير.. ولكنه إذا وصل، تأهبوا لمنعه لولا حركة مانعة من يد نحيلة ثبتتهم في أماكنهم. متقطع الأنفاس، أمسك الراعي برقبة الحصان الأشهب، وتَعَلَّقت عيناه بالراكب، جف ريقه تماماً، فحشرج منفعلاً:

- سيد.. سيدي.. فيـ... فيـ.. فيصل.

ماد جسده ساقطاً، فخف إليه الرجال يسقونه ويسندون جسده واقفاً، وإذ استعاد تماسكه، أمطروه بالأسئلة عن طبيعة المكان، وأقرب الكهوف التي تصلح للتخييم، يجيب الفتى وعيناه لا تخاطبان إلا الهاشمي النحيل الذي يعتلي صهوة جواده، يتأمل الزي الحجازي الأنيق، الثوب المشدود إلى الأمام بأزراره، والأكمام المقفلة، زبون الجوخ الزيتوني، وقد انطبقت كفته اليمنى على اليسرى، وازداد اخضراراً بابتلاله، الخنجر المعقوف يتوسط حزام الجلد ويلتمع فيه وهج فضي، ثم تلك الحطة الحريرية وقد انهدلت بللاً، وتَوَّجها عقال حجازي مزركش بخيوط الذهب والفضة، بهاء لا يستقيم إلا للأمير.

لم تجرؤ عينا الراعي على مواجهة عيني الأمير مباشرة، فراح يوزع نظراته كطائر مذعور فوق ثيابه. ثم يحط بها على امتداد أنامله الطويلة النحيلة الشاحبة وهي تشد رسن الجواد بقوة وصلابة. وكلما راودته نفسه بمصافحة الوجه، ارتعش وتبلبل عليه الكلام، واختلطت معلوماته، فعاد الرجال السؤال، وإذا ما انتهوا منه، استجمع الراعي قوى روحه مرة أخرى وحاول استراق النظر، غمرته العينان بسحر غريب، لم ير أجمل من عينيه، الوجه شاحب تكاد عظامه تبين، وبين النحول واللحية الكثة وأسر الناظرين، سقط قلب الراعي حزيناً، إن في الوجه حزناً يفيض، وفي الابتسامة الخجلى طمأنينة وسكينة لا حدود لهما، بل أن الراعي أيقن أن الأمير يخصه دون كل هؤلاء المحيطين بعطفه ومحبته، في تلك اللحظة قرر الراعي أن يتبعه إلى آخر

حدود الدنيا منقطعاً له دون سواه.

اقتاد الرجال الراعي إلى مؤخرة الركب، وأردفوه بدوياً حجازياً، فما اعترض، فإن غاب الأمير عن مرمى ناظره، حسبه أنه يسير في ركبه، وإن خسر القطيع الذي تلقفته الطبيعة الموحشة، وألَّم جند الأمير ببعضه فضموه إلى زادهم.

تجاوزت القافلة السبخات الطينية إلى «الحيف»، حيث أكد الراعي على كثرة المغاور التي تصلح ملاجىء، وكلما تقدموا ذراعاً ازداد الضباب وطأة، فإذا ما شاهدوا أخيراً فوهات المغاور اندفعوا نحوها منهكين، وسط صياح الشيخ «البلوي»:

- احذروا الحيات.. شبوا النار.

في مدخل كل مغارة سمعت طقطقة النار في الحطب، وتقدم الشجعان منهم يتفقدون الداخل، فانسلت الحيات النائمات، واندفع ذئب صغير هارباً، فادخلوا البغال والحمير لتستمتع بالدفء، وتدارت الخيل بحجارة المكان، ونَوَّخت الجمال والنوق، ثم تمدد الرجال فوق أرض المغاور المبتلة بالمطر، غطوا أجسادهم بالعباءات، وبدا كما لو أن الكون صمت تماماً.

رفع «هجرس» شوالاً من التمر أصابه بلل طفيف، وراح ينفضه بين ذراعيه القويين، ضحك «فيصل» ضحكة رائقة:

- عجل «هجرس»، الرجال جاعت.

يدرك «نسيب البكري» لطول عشرته للأمير أن وراء الضحكة ذكرى، فيقطع الصمت بالسؤال عنها، ويتحدث «فيصل» كيف مرت في خاطره وهو يرى كفي «هجرس» السوداوين الكبيرتين توزعان حصص التمر ذكرى والده الشريف وهو ينهاهم عن الإكثار من المؤونة، وها هم ينوءون بحمل غنيمة القافلة التركية ونعاج الراعي.

ضحكوا وقال «فائز الغصين»:

- المحظوظ يتطرجل برزقته.

احتد «أحمد البلوي» بين جد ومزاح:

- يتطرجل!! له!! ما هي زينة منك يا ولد الحضر، حنا ما غنمنا قافلة الترك طرجله! كانوا محوطين بالجندرمة. وكل فارس منا حط روحه بكفه يوم لعلع الرصاص!! مادرينا الموت طرجله عند أولاد المدن.

واصل المطر قرع حجارة المغاور، وتسرب ماؤه إلى طينها، وغرقت الفلاة بفيض الكريم، تنقل «هجرس» و«طفس» خادما «فيصل» بين الرجال يتأكدان أن لكل نصيبه من التمر، وعندما غاب نور النهار تماماً فوق هذه القفار الموحلة غط الرجال في نوم عميق، وظلت نار مغارة «فيصل» ترسل بأنوار خفيفة كافية لتبين ملامح الرجال الملتفين حوله، «فيصل» بوجهه الحنطى كصفحة نحاسية، و«نسيب البكري» و«فائز الغصين» والطبيب «حسن شرف» بأرديتهم المدنية الغربية التي عرفوها في دمشق وفلسطين، البنطلون والقميص يلفونهما بالعباءة اتقاءً للصقيع. «أحمد البلوي» بردائه الحجازي و«علي النجدي» بثوب بدوى وقد أزاح ضفائره السوداء الطويلة إلى ظهره، والنقيب «مولود مخلص» بالزي العسكرى الأزرق، و«لورنس» الفتى الإنجليزي يبدو غريباً بينهم بعينيه الزرقاوين وقد ابتل قميصه وبنطاله، فمنحه بدوي فروة كثة تدفيء أضلاعه، وعند باب المغارة قرفص «هجرس» و«طفس» يرقبان النار، ويقلبان حطبها، ويمدانها بالمزيد، وينتظران أية اشارة تأتي بطلب من الأمير، وما كان الأمير يطلب من خادميه الزنجيين شيئاً إلا سجائره التي يشد عليها بأنامله فتترك ما بين السبابة والوسطى اصفراراً مليحاً على اليد السمراء.

تَحلَّق الرجال قعوداً يقلِّبون أحوال قرون كانوا فيها جزءاً من دولة العثمانيين وظلت عروبتهم تتوارى خجلاً. تحدثوا بحماس، و«مولود مخلص» يقدح فؤاده ليظل مشتعلاً بأسماء الشهداء الذين أُعدموا في دمشق، يعرف «البكري» الساحة ويصفها ويردد الأسماء أليفة حية، مسلمة حيناً ونصرانية حيناً نابضة بعروبتها، تضج الأسماء كالمظاهرة في عقل «مولود مخلص» فيتذكر بأسى خاص شهداء دجلة والفرات، ترسم الحكايات وجعاً ممتداً من البحر إلى البحر، جسداً عربياً مثخناً

بالجراح، ودهراً من حكم الترك عرفوا فيه السياط والنهب والضياع.. ويستشعر الجميع روحاً خفية تؤرجح مشاعرهم وتذكي نارها.

يقرأون سفر الثورة مجدداً كما لو أنه مخاض «خالد» و«طارق» و«صلاح الدين»، ويتعاهدون على السير صباحاً حتى مدينة «الوجه» حيث سيعسكرون. يجددون العهد في كل حين، وكأنها رسالة إلى أرواح مجهولة تشاطرهم السمر بين جدران المغارة.

انفض السامر بثقل النعاس، وتوزع الرجال على المغارات ومددوا أجسادهم مسترخين متلذذين ببلل الأرض الباردة، وتحرك «طفس» بهدوء مستجلياً آخر طلبات الأمير، الذي هرب من رعاية خادمه مستديراً بكامل جسده مواجهاً حائط المغارة محكماً لف جسده بالعباءة، بدا كما لو أن هناك جسداً نائماً، في حين ظلت الأجفان مفتوحة على الفراغ. خمدت النار رماداً، وكتم هجرس آخر حشرجة دافئة بين أحطابها، وعندما ارتكى الماردان الأسودان بمحاذاة الحجارة، أغمضا أجفانهما بحذر دون أن يسمحا لجسديهما بالانزلاق.

سطا النوم على عيني «فيصل»، وتفتحت شبابيك السعير، كيف له إن يفلت من هذا الكابوس الذي عاشه يوماً حقيقة، وأضحى رفيق نومه الشحيح.

تقترب العربة العسكرية، يرى «فيصل» يقف فوقها مسكوناً هماً وأسراراً، إلى جواره «جمال السفاح»، منتفخ الأوداج بمسد شاربيه هازئاً، يهرب الدم من وجهه، ولكنه لا يتحرك، تقف العربة تحت المنصة، تتحول ساحة المرجة كلها إلى منصة، دمشق كلها منصة، الأعمدة الخشبية تصطف كسلالم متروكة هناك، وعند الرأس يتقاطع العمود مع امتداد أفقي يتدلى منه حبل في الفراغ، تتأرجح دائرة المشنقة كفوهة الجحيم، جمهرة الناس وجوه صفراء وأعين فزعة وأياد ترتعش وأقدام تنوء بحملها وصمت تتخلله همهمات غامضة.

يهل الركب، شبيبة كطلائع شقائق النعمان، حاسرو الرؤوس، حفاة الأقدام. بعضهم نحيل في البنطلون والقميص، وآخرون أشد نحولاً في الثوب والقمباز،

شرر في العيون، يتقدمون بثبات، لا حاجة لأن يدفعهم جلادو الموت، لا يتأخرون خطوة ولا يحجمون، و«فيصل» فوق عربة الخيل العسكرية إلى جوار الجلاد تنتفض روحه وجعاً، ويخيل إليه أن أعين الرجال تناديه وحده دون العالمين، ويوشك أن يقفز باتجاههم ثم تتلاطم في رأسه الموازين الثقال، لماذا عليه أن يتظاهر بالحياد؟ ولماذا يتوجب كتم النشيج في أعماقه، والزئير يروغ بين أضلاعه ويسكنه؟؟

والرجال الذين ساروا للموت يحملون فوق صدورهم ورقة بيضاء مستطيلة مسطورة بنص حكم الإعدام.. غنوا فجأة!! خرجت الأصوات مختنقة راعشة صادقة:

– زَيّنوا المرجه والمرجه لينا، شامنا فرجه وهيه مزينة!

تعالت همهمات الجمهور ودارت الساحة بأهلها بفعل الغناء الساحر، فبصق «جمال السفاح» على أرض العربة، ونظر «فيصل» إلى البصقة وقد التصقت في مكان غير بعيد عن حذائه العسكري.

عُلّقت الرؤوس في الأنشوطة وتُليت الأحكام، ثم سحب الجلاد أرضية المنصة تباعاً فتدلت أجسادهم.. الجمهور المفجوع بصمته استمع راجفاً إلى زغرودة مرتعشة أطلقتها امرأة في الزحام. آخر الشهداء صبي في الثانية عشرة، تقدم كما الرجال، وطوق عنقه بالحبل الغليظ وابتسم.. وعندما تدلت قدماه النحيلتان في فضاء المرجه كان رأسه مازال يعافر في أنشوطه الحبل التي لم تُحط بالعنق النحيل كما يجب، سمعوا حشرجة موته.. وردد أحدهم الله أكبر. تفصد الدم والمخاط من فتحات الوجه البريء المبتسم، وغامت الدنيا أمام «فيصل،» لم يعد يرى الساحة، تحوّلت إلى ضباب وهو يتجلد حاملاً جسده على الصمود، يسمع السفاح يتلمظ شاتماً العرب الخونة، لا تصعد الكلمات إلى شفتيه وكل ذرة في دمه تجأر.. طاب الموت.. طاب الموت يا عرب.

اختلج الجسد النائم، وتفصد الدمع من جفنيه المغلقين.

اقسم بالله العظيم أن ننتظـــر حـين تنتظــــر وأن نسير حين تسير، وأن لا ندين للترك بطاعة وأن نحسن معاملة كل من يتكلم العربيـة، وأن نجعل الاستقلال فوق حياتنا وأهلنا وأموالنـــا

«قسم النهضة العربية»

التي سُميت فيما بعد بالثورة العربية الكبرى

يعرف الشيخ أي قدر جاء به، ما هو بجاهل لبريق الذهب، فطالما رأى التماعته الفاتنة في أيدي عسكر الترك، غمروا به أرضه حين قضَّ مضجعهم، وعبث بأمنهم، ساوموه به، لوَّحوا ببنادقهم حين رفض دفع ما أسموه حق الدولة!! أية «دولة» تلك؟ وهو لا يعرف الحياة إلا فضاء، وكوناً رحيباً، ودرباً لحوافر خيله، ومرعى لا تذوق من الذهب حلوه ومره، يمرر لسانه فوق طاقم الأسنان الذهبي، يستشعر انزلاقه فوق سطح بارد، أسنان الذهب هدية حاكم معان التركي السابق قبل أن تستشيط حمية «عودة» فيحتل معان، ويصبح هو أميرها، تاركاً مفرزة عسكرية صغيرة في الجوار تدفع له الخاوة مرغمة، يعرف «عودة» كيف يلعب بموازين الذهب، كيف يحوله سيداً أو عبداً، يستلذ به سيداً إذا ما احتاجه، أما إذا عنت له الكبرياء، وارتأى أنه الأمير بلا منازع، فإنه يزداد تلذذاً وقد أضحى الذهب عبده الخسيس المقعي تحت قدميه.

إذا لم يكن الذهب!! كيف يفسر الشيخ لنفسه هذا الخروج؟ يعلم أنه في طريقه للفتى الهاشمي الذي يقود جيش النهضة، يعلم أن الموازين ترجح إمارة الهاشمي، ولكنه يدرك في صميم روحه وعمق إحساسه أن الأمر لا علاقة له بالإمارة، ولا يشتهي ذهباً، ولا يشتكي جوعاً، إنما الفضاء الذي يراوده، فضاء الحرية، التوق إلى رفع سماك السماء المنطبقة دهراً فوق الديار، هكذا هو الأمر الذي يدفعه للخروج صامتاً متأملاً.. لا مال عندى ولا خيل أهديها* ، إنما هو الحلم الذي يسكن خاطري، و«لا خيل لديه ولا كنوزاً أرتجيها، إنما هو قدر يدفعنا للسير معاً في درب وعرة سهلة»، هكذا حدَّث الشيخ جنانه وهو يتقدم، متراجفة عليه الصور والمعاني، قبل أن تتشكل في هيئتها الأخيرة.

* * *

---

* بيت المتنبي: لا خيل عندك تهديها ولا مال فليسعد النطق إن لم يسعد الحال.

هز «هجرس» ستائر الخيمة برفق كأول إشارة يقوم بها تنبيهاً مهذباً لإيقاظ سيده، أطبق «فيصل» جفنيه موهماً العبد أنه كان نائماً، حتى إذا ما اقتربت خطى «طفس»، تحرك بهدوء وتثاقل المستيقظ، يخدع عبديه وفي العينين إحمرار وسهد وليلة أخرى ضائعة في أرق، تحرك جسد «هجرس» الضخم بخفة يجمع أعقاب السجائر حول السجادة الشيرازية الصغيرة التي استوى عليها الأمير جالساً، حَدَّث «هجرس» نفسه، «يحتاج سيدي إلى الليل كله ليدخن كل هذه السجائر». أحضر «طفس» قصعة الثمر والكعك، وسمح لنفسه أن يتبسط ضاحكاً:

- سيدي، لزوم تفطر اليوم، ستي رسلت الكعك.

وضع الصحن المعدنى معبأ بقطع صغيرة من الكعك الذي يعرف فيه الأمير صنعة أمه، يتذكر كم مرة هَرَّبَ رسائله من دمشق وسط حبات الكعك التي صنعتها نساء آل البكري.. رشة الحنان الصباحية عبر القفار طبعت ابتسامة حزينة على وجهه المرهق، مد يده متناولاً فنجان قهوته المرة التي جاء بها «سالم»، ومج من سيجارته نفساً عميقاً. فأدرك الحرس الثلاثة أن هذا أوان دخول الآخرين.

دخل «فايز الغصين» شاداً خنجره حول خصره، فلمح الأمير عبر شقوق ستار الخيمة مجموعات المتسولين الذين افترشوا الطريق، قال بنبرة مشفقة:

- لا تطيلوا قعدتهم، سنعوهم بالمقدور عليه.

يجتمع رفاق المساء، ويطقطق الحطب والعشب الذي أطعمه «هجرس» للنار. وتوقد عند المدخل الأخشاب فيسمع فوران القهوة ممزوجاً برائحتها المنبهة اللذيذة، يمد الأمير يده إلى كعك أمه، يقضم بهدوء قضمته، فيأكل الرجال، يكتفي بعدها بأن يرفع الكعكة إلى شفتيه جيئة وذهاباً كأنه يأكل حتى إذا ما اطمأن إلى شهية الرجال ترك نصيبه.

يتحدث «مولود» بحماس عن أول دفعة من المتطوعين في الجيش النظامي، جموع الجنود والضباط العرب الفارين من الجيش التركي، ستمائة ضابط وجندي تركوا مصائر أهليهم معلقة تحت مقصلة «جمال السفاح»، واندفعوا بجسارة

يقودهم «نوري السعيد» لملاقة جيش فيصل الخارج من الحجاز.. يصيح «مولود»:

- الرجال موجودة، لكن السلاح واللقمة ما هي كفاية، والإنجليز بعدهم ما وفوا بالمطلوب.

يبحثون عن جواب الواثق في وجه فيصل، فيرون توهج عينيه وقد اندفع جسد «شفيق العير» الهزيل، وأتلق وجهه الأبيض مهللاً:

- عودة.. شيخ الحويطات وصل يا سيدي.

تراجع الرجال أمام الجسد القادم الذي أعاق تسلل ضوء النهار إلى الخيمة، وتقدم الرجل بعباءته ترفرف حوله، ساحباً بيده طفلاً في الثامنة، انتصب «فيصل» واقفاً، وكم استقبل من قبل شيوخ القبائل من نجد والحجاز جالساً، اختلج فرحاً بذاك الحويطي. وكأنه قبيلة مقبلة، تعانق الجسدان الماردان فاستشعر الرجال بداية عهد، وكأنما انفتحت الصحراء كفاً مبسوطاً حين سلم الشيخ بعبارة أذهلت السامعين:

- السلام عليك يا أمير المؤمنين.

استيقظ التاريخ وانبعث الرماد الذي طمرته أسياف الترك وأحذيتهم العسكرية الثقيلة وسياطهم وعمائمهم زمناً ممتداً بدا كما لو أن لا نهاية له، ارتجفت أبدان الرجال وأغمض «عقاب» عينيه تاركاً الرهبة تُقَلِّب روحه على نار مقدسة وهو يسمع صوت «عودة» الجهوري يقسم قسم الثورة ليصبح جندياً في جيش النهضة.. تهدج صوت «عودة»:

- اقسم بالله العظيم أن نخيم حين تخيم ونزحف حين تزحف ولا نطيع أمر تركي، ونعامل كل من يتكلم بلسان العرب أحسن معاملة لو كان بغدادي وإلا حلبي وإلا شامي، اقسم أن الاستقلال فوق العشيرة ومتاع الدنيا.

مغمض العينين وقعت بصيرته على لفظة الاستقلال.

ما هو هذا الذي فوق العشيرة ومتاع الدنيا؟ ما هو إذا لم يكن الدنيا

بعينها؟ الاستقلال يا موضع الندى وملعب السيف، هذا ما ترقبه «الحكيم» دهراً وجعلني انتظره عمري.

حطم «عـودة» أسنانه الذهبيـة على صـفا عند باب خـيمـة «فيـصل». لن يأكل بأسنان الترك بعـد يومه هذا، كَبَّرَ الرجال في الخـارج وهللوا، فهز كتـفيه مسـتهيناً، يفرحون بالعرض!! وفي الفؤاد أعاصير أشد عتواً.

«فيصل» و«عودة» رجلان جلسا يُعـيدان ترتيب الزمان والمكان والأحلام. عندما تخـتطف الأشواق روحـيـهمـا، يمدان الكف إلى رأس الطفل «مـحـمـد بن عـودة» يداعبانه، ثم يعاودان الحديث.

قال «عودة»:

– أنا.. وعذ بالله من قوله أنا.. أجيب لك «العقبة».

«العقبة» تلك الـقرية البحرية الوادعة بنخيلهـا على رأس الخليج، حيث يستلقي على أعتابها وادي عربة الكبير، اشتعـل وميض مفاجىء كالحلم في ضمير البدوي، قال «مولود»:

– الإنجليز بالعريش، ما أسهل ما يجيبون «العقبة».

– «العقبـة»!! عقبتنا، والدرب ليـها نعرفه حنًّا، ونحوش بيـه كل هلنا والعربان فدوه لعيون «العقبة»، حنَّا ندخل «العقبة».

«وما أدراك ما العـقبة»* ..حماس «عـودة» العاطفي تدعم بتفاصـيل تؤكد أنه محارب يعرف تخوم الصحراء ومجاهلها، ويعرف كيف يصير إلى امتلاكها.

– وعداوات الماضي وأوجاع الغزو؟؟

– هاذي نداويها، عدا الجرح مع ولد العم، هذا كوم وهذا كوم.

يدرك «عـودة» أن جرح «عـبطان» و«عناد» مـازال راعفـاً، لا سـبيل إلى تجـاوز حراراته، وقد حملت إليـه الأخبار انضمام «حمد الجـازي» إلى ثورة الشريف، فما

* الآية ١٢ من سورة البلد.

وجد حرجاً في سيرهما في رهان واحد، على أن لا يلتقيا، والصحراء تتسع لكليهما، وأدرك الأمير تأجج هذه المشاعر، فاحتاط لها.

في الأيام القادمة شهدت الصحراء التقاء العمالقة، وتفرج «عقاب» وفرسان الحويطات على الهرج الذي دب في معسكر «الوجه» وهم يعلنون وصول الضابط العراقي «جعفر العسكري»، شاهدوا تدافع الجند النظاميين حول خيمة الأمير، لينظروا قائدهم الضخم الأعلى رتبة، والأعلى ضحكاً، في سترته الكاكية، يقسم قسم الولاء للثورة.

وفي الخيمة التي استقامت من سعف وجريد النخل اليابس. رسم ثلاثة رجال العالم فوق الرمل، خارطة مهرها دمائهُم، وخط «جعفر» درباً من العقبة إلى دمشق، فتندت عينا «فيصل»، ومسح «عودة» الدرب بكفه وأعاد رسمه بإصبعه متعرجاً إلى الشرق وصعوداً إلى الشمال، هذا ما نعد به.

تعاهدا عهد الحلفاء، «من حرر أرضاً فهي له».. وهذه أرضنا.. في ذاك العام نفسه رسم رجلان آخران خارطة مختلفة على الورق.. سايكس بيكو.. مهرها البارود والذهب، ودماء الذين جادوا بدمائهم وما كانوا يعلمون.

قضى فرسان الحويطات وقتاً في مضارب «الوجه» يرقبون جعفراً ينظم جنده ويصفهم في أزيائهم الموحدة التي أودت بأناقتها قسوة الصحراء ووعثاء الفرار من الجيش التركي، يرفعون بنادقهم ويسددون إلى أهداف وهمية وصوت القائد يدوي فيردون.. نعم سيدي..

في حين أن بدو العقيلات كانوا يتدربون على زرع الألغام بإشراف الكابتن الإنجليزي «غارلند»وهو يرتدي الزي العربي، وشارك البدو من شرارات وحويطات في مهرجانات الرماية، لكنهم لم يفهموا لماذا كان لزاماً هذا الوقوف المنتظم والحركة الموزونة بميزان.

قال «زعل»:

- أحب أكون فارس على راسي.

فعقب «جعفر» ضاحكاً:

- وأنا أحب أكون على راسي، لكن هذا ما يستوي مع حرب حقيقية، هاذي ما هي غارة.

كان «جعفر» يعاني من تنظيم المتطوعين من البدو، فهناك سبعمائة فارس من بني جهينة يرتدون ثيابهم البيضاء، وكوفياتهم الحمراء، ويلوحون بسعف النخل. ومعهم مئات من عنزه ما تعودوا الانصياع للأوامر العسكرية، في حين قدم الشريف «محمد أبو شريان» بثلاثمائة فارس يرتدون ألبسة بلون الحناء وعباءات سوداء.. اختلطت الألوان كما لو أنه المهرجان، وشعر «جعفر» بالامتنان «لعودة» الذي كفاه أمر قيادة وتنظيم الحويطات.

أصبح لجيش «فيصل» جناحان، جناح عسكري منظم من الجند والضباط، وجناح حر يخفق كما شاء هوى قائده من البدو.. وقد أثار الأخير الضباط الإنجليز فارتبك «نيوكمب» شاكاً فيما يمكن إنجازه مع هؤلاء الذين يتحدثون صائحين، ويكثرون من الغناء والتهليل، شاعراً أنهم قد يتسببون بمتاعب أكبر من تلك التي يثيرها الأتراك أنفسهم، ثم إذا ما تغاضى عن الهرج والفوضى التي سادت عراء «الوجه» داخله خوف آخر، من أين لهؤلاء بالمؤن؟؟

لم تلق مخاوف «نيوكمب» آذاناً صاغية، إذ أن «فيصل» و«جعفر» أدركا أن لا مجال للحراك في الصحراء، دون أن يرفد البدو الثورة.

تحرك الفرسان من الحويطات باتجاه ديرتهم استعداداً لأمر يعلمه «عودة» فقط. تدافعت خيلهم وإبلهم خارجين من المعسكر هاتفين «حنا اخوات صالحه.. حنا اخوات عليا، ليت عيونك ترى، ثم توقفوا مبدين استخفافاً يخفون وراءه دهشتهم وانبهارهم، في حين راحت سيارتان «رولز رويس» عجيبتان في مظهرهما تتقدمان باتجاه المعسكر، تخب حولهما ناقة مذعورة، وقد امتطاها رجل قصير أشقر برأس كبيرة، بدا الأشقر فخوراً متباهياً، ورغم أنه لَوَّح لهم، ولم يردوا تحيته، وإن قدروا أنه من الحلفاء الإنجليز، إلا أنه سار باتجاههم.. ومَيَّزَ «عقاب» لون عينيه الأزرق

وهو يقف مشدوهاً قبالة فرس «عودة»، همس «عقاب» لنفسه:

- الأحمر بعيون زرقا.. يكفانا شره..

بحلق الإنجليزي بعودة، وتمتم بعربية مكسرة، لكنها مفهومة:

- لابد.. انت «عودة»..

قهقه الشيخ وهز رأسه:

- زين.. زين.. وانت خوينا النقليزي «اورنس»، ما تخفانا..

هز «لورنس» رأسه جذلاً، لقد طارت أخباره إلى الشيخ الذي تمنى لقاءه، وارتجى حضوره طويلاً..

تقدمت سيارتا الرولز رويس إلى المعسكر، وأشار «عودة» إلى فرسانه فتبعوه خارج المعسكر، وبحلقت «الكحيلة» في الأجساد المعدنية الغريبة وهي تطأ رمل الصحراء، كان بها توجس غريب، وظلت تتململ تحت «عقاب» وتراودها فكرة أن تلوي جيدها فتنظر أقفية تلك المطايا التي بدت عاطلة من الروح.. ولكنها استكبرت وسارت دربها قدماً.

لا شيء يمنعني من أن آتيه
في أي مكان يكون
عندما تحوم أغنيتي بجناحيها
وأدفع الباب الموصد في ذهني فينفتح
على دار خرافية

«طاغور»

تأمل «عودة» فرسانه، وانتظر، فهم البعض مغزى انتظاره.

- «عقاب» لابد يقوطر معنا يا الشيخ.

قالوها غير متأكدين، فكيف للفتى الذي يصد معهم الغزاة ولا يخرج أبداً في دور الغازي، هذا الذي طالما احتقر حروبهم، كيف له أن يرافقهم الآن؟؟ لكن جسده الفارغ الذي طال فجأة، ووقف قبالة الشيخ، أزال شكوكهم، قال:

- تراني معاكم.

- والحكيم!! ما يردك؟ وانت له مثل المحبس بالإصبع

- لو حملته الرجلين كان جاكم..

ضحك الشيخ ووقف مرحباً:

- اكسبنا فارس ما هو مثل كل فارس.

قرصت الغيرة قلوب الرجال، إلا أنهم أمنوا على مقولة الشيخ عارفين:

- قبل الحرابة... لي مطلب يالشيخ..

يرفع «عودة» عينين ذكيتين:

- «مزنة» يا «عقاب»؟؟

- «مزنة» يا شيخنا.

قهقه «دايود»:

- «عنتر».. «عنتر وعبلة» إي والله..

خبط الشيخ كتف الفتى سعيداً:

- وحنا ما نبوق مثل هل «عبلة».. «مزنة» جاتك قبل الحرابة.

مسدت «عليا» جديلة العروس بزيت اللوز، وضمخت جسدها بالطيب، ومررت مرود الكحل في العيون النواعس، وأمسكت «عمشة» بكفي الصبية، والنسوة يغرزن إبرة الوشم الدقيقة، يرسمن السيالة من أعلى الشفة حتى نقرة الذقن، وتتحمل «مزنة» ألم التجميل بمزاج رائق.

وشم الرجال معصمي «عقاب» بإسوارة الحبيب وزنديه بوسادة الحبيب، وخرج الحي كله إلى ساحة الجفر يزف «عقاباً ومزنة».

آهيـــا والعـين عين المهـــا	والعـنق مـــايل مـيـــــل
والخـصـــر مـن رفــعــــه	هد الاقـــوى والحـيـــل
يانـايمين الضـحـــــى	واتنبـــهـــــوا بـالليـل
عـقـاب صـاد الغـــزال	اللـــي عليـــه العـيـــن

ضم الحكيم يد «عقاب» إلى يد «مزنة»، وبارك رأسيهما، وتفرست «مزنة» وجه الحبيب دون أن يزايلها خفر العرائس.. استجمعت روحها، وهمست:

– أود لقانا في أرض اختارها قلبي قبل لا يلقاك.

– وين ما تريدي يكون..

يبتعـدان عن الديار، تتأرجح زوداتهما إلى جنبي الكحيـلة، رفيقة سفرهمـا الوحيدة، تتعـملق خيـالات الرجل والمرأة وهمـا يدخلان وادي رم.. وادي القـمر، تجفـل الوعول البـرية متـراكضـة إلى سفـوح الجبـال الصـخرية المحـيطة ببحـر الرمـال الملونة، وتتطلع طيورالحـجل بفضول ثم تطـير إلى الأعالي، يداً بيـد يعبران الوادي، يتطلـعان بحنان إلى أشواكه وزهور الأكـاسيا العنيدة النابتـة فوق الرمل، وقبل أن تسقط حـمرة المغيب، ترفع «مزنة» كفهـا وتشير إلى الفردوس، فتبدو البـقعة الخضراء وسط الهجـير، جزيرة في بحر وقمر في سمـاء وقلباً في جسد، يقتربان.. تتـوازى الخطوات باتجاه الحلم الراقد في قلب الرمل الأصفـر الذي اشتـعل برتقاليـاً، وانعكاسات الشـمس الغاربة تداعب صـفحـته. الوادي كله شعلة من نار، ووحدها الجزيرة، المرفأ، الواحة.

تسـتند إلى كتـفه وتغـيب، تتقطع الطرقـات إلى ما مـضى، وتمتد الأشـواق إلى الآت.. إنه الفردوس، عدن التي ما وطأتها قدم من قبل.

– يقولون الغولة تسكن كهوف الطور هنيه.

– يقولون اللي يقولون، حنا وحدنا نعرف ما حد يسكن الطور إلا أنا وأنت.

تتلون الصخـور ويسمعـان خريراً بعيـداً غامضـاً لأمواه مختـفيه بين تراكـمات الصـخور الجـرانيـتية، جـذران يزيحـان الأغصـان التي تعـانقت تسـد الدرب إلى النخلات، فإذا ما تجاوزا أكمات النبت البـري، تجلت النخلات، وأقسمت مزنة أنها سمعت همس النخيل وهي تشعر بدبيب الوجد يمر بطيئاً ماتعاً في مسامات جسدها

العطشى، يزيح بكفيه حزماً من الأشواك وتبدو الدرب التي يشقانها ضيقة غامضة ولكنها أليفة.. تتقصف الأعواد اليابسة تحت أقدامهما، وتنثني الأعواد الخضر.. أهذه هي المرة الأولى التي يطآن فيها أرض الفردوس!!

يعرفان النخلات بأسمائها، والوادي بحصبائه وحصاه، يعرفان كيف تعترج الطريق، وإلى أي ظلال تفضي، يعرفان مخابيء العصافير والشعب التي تطل من كواتها المداهمة رؤوس الحساسين، من أين جاءت كل هذه العصافير التي لم تفزعها خطوات العاشقين!!

- «عقاب».. هاي ما هي نخلة!!

أطول وأشد استقامة وأوسع ظلاً وأبعد ثمراً، يفترشان الأرض وحيدين، تجاورهما زنابق الصحراء الساحرة، وكأنها قدت من صوان هذي القفار.

سقط المساء دثاراً مزيناً بالنجوم، وفاح شذى بنفسج بري طالع في الجوار، رحلت الأطياف والظلال فائتلق وجهها وتوهج وجهه.

ذاهب إلى الحرابة.. ها أنذا لكِ خصب الأرض ووسادة التمني والآمان، لحمي خبزك ودمي خمرك..

ها أنذا لك، جود الكون، ذراعي مسندك ومطري مشربك، قاب قوسين أو أدنى تتفتح السماء.. جنى الجنتين دان.

تَشتَمه بأمان غزالة تتعرف وليفها، وتتحسس بأناملها سنابل حقل عامر فى صدره، وتطير روحه عندما ينزلق فوق جسدها الحرير، كيف اختزنت الصحراء هذا الترف الناعم!! تغيب أنفاسه في أنفاسها، اثنان في واحد. ويردد المكان بحنو صدى الآهات، ويتقطر الشهد، يرق الشوق ويتوحش كما يشاء له الجسد، يختلجان وجداً، ويهوي سهيل إليهما فيصطليان جمر المحبة، ويحتسيان خمرها، فيذوبان.

يدرك عقاب أنها كانت غيمته التي أظلته لحظة الميلاد.. وتدرك أنه الغيث الذي انحبس انتظاراً لقدومها. يكتشفان بفطرة بسيطة أن الأرض والسماء كون واحد، يتفتق جسد الأرض عن أزهار ملونة تصير فراشاً وثيراً لهما، يعتنقان طويلاً خارج الأشياء حولهما.. يتناغيان ويتبادلان الكلمات والقبلات. يشربان حتى الثمالة،

سيل الحديث عطش آخر إلى الروح الرفيقة التي احتجبت ثم دنت مجلوة وعادت إلى مصبها، يخيل إليهما أن الحياة ستمضي وهما متلاصقان، ولوهلة تطول يبدو أن لافكاك لهذا التلاحم الجليل الدافىء، ومع أول إشارات الفجر تدثرهما سكينة لذيذة، يؤرجحهما الحنان الصافي كأنهما ورقتا شجر تطفوان على سطح ماء يتلألأ.

من أنين الوجد يغزلان أغنية، ينضدان من بهاء الكون تيجاناً لرأسيهما الحاسرين، ويدندنان بما علمتهما أمهما الأرض من مواويل حزينة، يغنيان، ويجوس الصوت الراعف بالفرح مجاهيل التيه العظيم، يطلعان كزهور الرمل النادرة مخالفين نواميس الصحراء فرحاً ورقصاً، يغنيان غازلين من نشيج الوجد شالاً وكوفية.

كأنها الأميرة النبطية تقف في باب قصرها، وصوتها يجوب رحاب البتراء.. الماي.. الماي يا عقاب..

* * *

كشفت باب الخباء تلوح له وهو يمتطي ظهر الكحيلة ويطير بها إلى حومة الرجال، وارتفعت أصواتهم وهم يعبرون الدرب بين جبلي «مشهاق» و«طوال».

نار الحرابة واشعلت	مين يطفي نارها
خيل النشامى واقبلت	تريد تأخذ ثارها
الله من قوم طغت	بالسيف حنا اذعارها

نأت الأصوات وهم يبتعدون، والعاشقة التي حافظت على ابتسامتها، ووقفتها الشامخة، خزها الحنين وقد عسرت رؤيتهم، فغنت بصوت كالنسيم رقة:

يا حماماً أبروس العلالي رقي	ماهقيت إلا حبيب يرد النقا
يا حماماً أبروس العلالي يصيح	ما خمنت إلا حبيب يفارق صحيح

لما استخلف عمر، صعد المنبر فقال «إني قائل كلمات فأمنوا عليهن، إنما مثل العرب مثل جمل أنف اتبع قائده، فلينظر قائده حيث يقود، وأما أنا فوربِّ الكعبة لأحملنَّهم على الطريق».

«الطبري»

صعب هو المرقى شمالاً..

ثمة شعلة في فؤادي، جذورها من صحراء الجنوب ووهجها يلوح شمالاً في بيرق اسمه دمشق، وبين الجذر المنغرس في رحم الأرض، والوهج الألق تتمدد هذه الفيافي القاسية الصماء، كأنها جسدي.

تحركين رأسك الفتان كثيراً يا غالية، تلوحين بخصلات شعرك المحمرة، وألمح إذ امتطي ظهرك الصلب الجموح، عينيك الواسعتين، تودين لو تمكنت من الالتفات إليّ، تشبهين حبيبتي يا «لكحيلة».. مثلك دافئة غجرية اللفتات، ذبَّاحة العيون، مزنة وأنا وأنت ألسنا واحداً؟؟ ياجلدي حين لوَّحت مودعة ولاشك أدركت معنى الخروج الكبير. وها هي ابتسامتها تلوح لي طوال دربي، تعرف الروح التي هي مني في جسد آخر، تعرف كم اشتاق لزرقة البحر منذ ذكروا اسم «العقبة» أمامي، وتعرف الروح التي شَكَّلها الله من نفسي لتكون امرأتي، كم أحن إلى عذوق البلح، وكم يضنيني الشوق إلى ظلال النخل، وتعرف فوق ذلك أن وجداً يستيقظ في دمي.. سوسح روحي، طحنني وأعاد زرعي وحصادي وخبزني على ناره المقدسة، النكوص ليس خياري، عندما كنت يافعاً قال الحكيم شيئاً حفظته ودونته في لوح صدري الذي لا يخون ويكفيني أن ألمح النور الذي لا أدرك كنهه لأفهم ما ذهب إليه الحكيم في كلماته.. السيف في موضع السيف، وعدا ذلك عار. ليس الحر ابن راعي الفضاء ممن يرتضون عاراً، سيفي ممدد على بطن «الكحيلة» في غمده، يشتاق انسلالاً، وبندقيتي تسند ظهري.

تفحصنا الشيخ ضاحكاً وحكى لنا بفخر ومنة سالفة تحريض الشيوخ له:

- ما هي سنتنا.. ما صارت!! شيخ يشور رجاله!! كيف اهو شيخ؟؟

رد شيخنا الضحوك الصارم والشرر في عينيه:

- كان رجالكم كدش، رجالي خيول محجلة.

سمعت يا «الكحيلة؟ مضرب المثل صرت، وها هم حولي طلائع «الغاير»، قلب الجيش الذي قسمه العقيد راعي البخت الذي ما انتكست له راية في غزوة،

المحرم، الأمثير، المنيخ* ها هم حولي عقد جواهر.. أعرفهم، فرسان القبيلة الذين تسابقت واياهم إلى الراية وجسنا الديار وصددنا الغزو معاً، ويعرفونني، ارتضوا بأن لا أرافقهم إلى درب هم فيه الغزاة، يعرفون أن أبي الحكيم علمني أن السيف في موضع السيف، ويدركون معي أن حان زمان السيف، هؤلاء الذين رضعت أثداء أمهاتهم، أخوتي، تهزني رائحة الحليب يا حبيبتي الآن، يدق قلبي بعنف وأعرف أني أفتديهم بدمي.

لما تحرك «الاسبور» ليستكشفوا الدرب تمنيت لو أني معهم، خفاف الحركة، شجعان القلوب مضوا، وعندما سارت «الطلائع» عكس اتجاه الجيش الحقيقي تناوش العدو تصرفه عن مواقعنا. تمنيت لو أني معهم، وإذ تأخر «الكمين» الاحتياطي لحمايتنا من التفاف مفاجيء، تمنيت لو أني منهم.. كم افتت لهفتي!! وكيف لى أن أذرو جسدي وساعدي وإرادتي في كل الخنادق!! سرت مع شجعان «الغاير» يتقدمنا «عودة» على ناقته، أحببت أني معه، ألمح ناقة الشريف الهاشمي «ناصر» «غزالة» تخب وراءها ناقة النقليزي «أورنس»: «نعامة»، وأسمع بجذل تعليقات «زعل» على امتطائي ظهرك مما لا يستوي مع طبيعة الغزو في الصحاري، يؤجلون جهد الخيل للحظة المواجهة، كل الخيل مؤجلة إلاّك.. وكيف لهم أن يعملوا، أنت «الكحيلة»، لست فرساً، أنت «الكحيلة».. سخر «زعل» منا:

– فارس عنيد وفرس عنود.

أعرف يا حبيبتي أن فى إهاب كل رجل عند الخطر فارساً عنيداً، وأعرف بالحدس أن الفارس لا ينجلي فضاؤه إلا في معركة مقدسة، وما خرجنا اليوم لغزو أو لقوت، هى أشياء لا نلمسها. لا نثمنها، نرخص الروح فداها، قد يشح الماء في صحارينا ويفعل الأتراك في القرى والبوادي فعل الجراد. يضمون الناس إليهم ترغيباً وترهيباً، وكذلك يفعل الأمير، هذا حاله حين أغرانا بسفائن الإنجليز

* ألقاب تبجيل لزعيم البدو.

المحملة مؤناً بانتظارنا في مياه «العقبة». ولكننا ما أتينا من أجل تلك المؤن، ولا كذلك فعل الجند.. كم كانوا فاتنين أولئك الحليقي الرؤوس الذين قدموا من سوريا والعراق وفلسطين وتقافزوا إلى ظهر السفينة يبحرون نحو «العقبة»، تمنيت لو أني معهم، غير أني سرت براً مع ركبي.. وكل الطرق تقود إلى العقبة.. كل الأحلام تأتي بصحار.. كيف أفسر شوق البدوي إلى المدينة!! وأنا لا أبتغي سقفاً ولا باباً، وأحلم ببحّر ونهر أمدد فيه ذاك العملاق الذي استيقظ داخلي، قدماه في العقبة ورأسه في دمشق.. إنه ذات الوهج الذي يدفعني للخروج وسط الجفاف الذي يعتري الأرض، إنه ذات اليقين الذي يقودني خلف شيخ غريب الأطوار يريد أن يدخل العقبة من أرض السرحان فيطيل الدرب، «العقبة» على تخوم أراضيه الغربية، إلا أنه يسير بنا شرقاً ثم ينحرف شمالاً، وأفهم وأنا أرى ركبنا يكبر في الطريق معنى هذه المسيرة المتعرجة الشاقة عبر قيظ الصحراء ومخاوفها. انضمً البدو إلينا بالعشرات من مختلف القبائل والعشائر.. ثم المئات، كلما سرنا فرسخاً لحقت بنا جماعة، يقبلون نحو الشريف متأملين وجهه القرشي هازين رؤوسهم مستطلعين وعد النصر في عيون «عودة». أتراه الذهب الذي حرك جحافل أولئك الساكنين في تبلد لزمن طويل؟ أهو الحلم؟ أهو الميلاد الذي خرجت إليه أنا؟؟ وإلا ما الذي أتى بهؤلاء الذين طالما تداروا من العجاج وقسوة الشمس بالخيام وكهوف الأرض، يجرون أوتار الربابات الحزينة ويستمعون ذاهلين لرجع أرواحهم تحكي لهفة لا يدركون أبعادها، أهو شوق مخبوء لغد طال انتظاره؟ أهو الذهب الذي حرضهم على أن يصبحوا طرفاً في «حرابة عمومية»؟ وإلى أي مدى هي عمومية؟، الكون يحترب.. تتعقد الدروب وتتشابك الغايات.. ذهب وقحط، جوع وذل.. طمع وحلم.. أم هو شيء مختلف، منتظر..مكان تحت الشمس، صخرة ترتقي، أفق لا يحد.. أسمع حدي الرجال وغناءهم، فتسكر روحي نشوة، ما أحلى السيف في موضع السيف.

حـريبنـا ينسـاق عنـا   سـوق الظمـي عن شـرابه
وان كـان مـا ينسـاق عنـا   لابد تعـشـاه الذيابـه

اثنا عشـر يوماً عسيرة والشيخ يرقـبنا بعيـون حاسمة، يـقسو على البـهائم التي يخاتلهـا الوهن، ويؤنب الرجال الذين ترتخي خطواتهم تحت سيـاط الشمس، ينزع بعضهم جزمـة الجلد الحمراء ذات الأعقاب الحديدية مكتفين بنعـال من جلد البعير المشدود بأبزيم إلى القـدم، تتقرح الأقـدام، وأشعر بتـشقق بين أصابع قـدمي وكأنه فعل سكين، أكـزّ على أسناني لأحتمل، الحـرارة تدير الرؤوس الملفعة بالكوفـيات، وتسـوط الأقدام العـارية والمحـذية، حتـى لنشعـر بأننا نكتـوي بنار الجـحيم إذا مـا لامست أقدامنا أجساد الخيل أو حصى الصحراء.

الظمأ قاتل آخر يتربص بنا، فالشيخ يفـرض تقنيناً لا يمكن مساومته أو العبث به رغم مغريات قِرَب الماء الصغيـرة ودلّي السقاية الكبيرة المشدودة إلى أرداف النوق، يدرك بخبـرته أن مخزوننا من الماء بالـكاد يكفينا إلى أرض السرحـان، نسير بطيـئاً وخبيـاً وسريعاً كي لا تتعـب الإبل والراكبون، إلا أن الشيخ يشـيط نشاطاً في يومنا الأخير، يدفعنا إلى اجتياز مخاوفنا بالإسراع إلى الوادي المقصود.

عندما أبصرت بأول خلند أطل بجسده الضـئيل من وكره، وارتبك مسرعاً إلى الاختفاء، مضطرباً لتـقدم «الكحيلة»، أدركت أننا في وادي السرحان، زال العطش وهدأت الروح ومـا عـدت استـشـعر وجع الشـق الأليم بين أصابـع قدمي، وكـأن «مزنة» تظلل رأسي في فـضاء الله الواسع المفـتوح، ماذا تفـعلين الآن يا «مزنة»؟ ها نحن قطعنا الطريق شرقـاً ولما تبدأ المعركة، وكأني يا حـبيبة أستشـعر دفء أنفاسك وأسمع شـهقاتك إذ التحم الشـوق بالشوق. اقتـربى يا «الكحيلة»، سترتاحين عـما قريب، مكنيني من نجمة الحظ الساطعة التي تتوج جـبينك لأمسحها بيدي، امنحيني جيدك أتحسسه، وَسدي رأسي شعـر عنقك الفتان، يا كحيلتي، يا مزنتي، وحدنا في هذا الركب، نعرف موقع خطانا وندرك أين نمضي.

أقبل رجـال الشعلان نحـونا مهللين مرحـبين، وتأرجحت عاصـفة غامـضة في

أعماقي، أعرف أنها تكبر وتتعملق ثم تخـرج، تفرش جنونها فوق الفيافي والقفار، تقلب وجه الأرض وتحرثها وتعمدها بميلاد جديد.

* * *

اقتاد رجـال الشعلان خيل وإبل القادمين إلى الحظائر بعناية، وأبدى المسـتقبلون ترحاباً واحتراماً كبيرين وهم يقتادون الرجال إلى خيم الضيافة، تهامس الرجال:

– الشيوخ تعرف بعضها.

عندما نوخّت الإبل، فـإن أول من لامست قدمـاه أرض السراحين بعد عـشرين يومـاً من رحيل مـرهق، هو الشـيخ «عـودة» الذي ظل واقفـاً بانتظار إبل الشـريف «ناصر»، وتقـدم كلاهمـا إلى خيمـة الشيخ «نوري الشعـلان» الذي وقف احتـراماً لمكانة القادمين، وهش من حوله في وجوه الضيوف:

– ساعة مباركة جيتكم.

سرعان ما اتكأوا إلى المساند الضخمة في صدر المجلس الفسيح.

أميـر الرولة ملفع بعـباءته، يرحب بلـسانه وعـيناه تنفدان إلى أفكار الجـالسين، وجهـه متـوهج كأنه في مـواجهة الشـمس وأنفه مـثل صقـر جارح، يصـدر أوامره بصوت أجش:

– القهوة.. القهوة.

ويرد الفتيان:

– القهوة عمي.

تفوح رائحة القـهوة الزكية وتسـمع طرقعات الحبات وهي تتـطاير في المحماس ثم دقات المهبـاش المنغمة والرجل الخبيـر يسحن الحبات في جوفـه ثم تفوح رائحة الهيل والزعفران، وينطلق المنشد صادحـاً يفلسف الزمان، يشد الشاعر عود الرباب فوق صدرها المخطط بـأوتارها، تحتك الأوتار فتصدر صـوتاً متراجفـاً ليدرك المنشد أن الرباب جـائعة، فـيمـررها فـوق النيران ثم يعـمل قـوسه فـإذا بالصوت أشـجى وأعمق إيغالاً في النفس:

موصيك أنا يا بوي عن عشرة الديــك

من رافقه يعاعي معاعاة الديــاك

لا تأخذ التي تقصرك عن معانيــك

لو انها مثل الشمس أو القمر ذاك

الوسوسة والنمنمـة لا تجـي بـيك

إيـاك لسع الغافـل إيـاك

يتمايل الرجال مرددين بصوت مخشوشن:

- انريده.

- وعدوك إليّ من زمان معاديك لو زلفت رجلك عن الطور درباك

الضيف لا تعطيه مقرن علابيك خليه صديقك أو حبيبك إن جـاك

يعاودون التمايل سكارى وما هم بسكارى.. مرددين:

- انريده.

وتنقل العبيد حاملين الدلال الساخنة في أيديهم اليسرى والفناجين في اليمنى بادئين بالشريف وقد أشار نحو أميرهم، ثم متجهين إلى «عودة»، ويتمتم الضيوف:

- تسلم يا وجه الخير.

يومىء أمير الرولة والسرحان إلى خادمه فيسرع ذاك في لف سيجارة الهيشي بين أصابعه المدربة ثم ينقلها باحترام إلى أصابع الأمير، الذي يبدو مستمتعاً بها متفكراً بكل كلمة سيقولها عقب أن يسحب نفساً عميقاً من رئتيه.

تململ «زعل» في مجلسه وهو يستمع إلى حديث الشريف المطول عن قدسية المعركة، التقت نظراته بنظرات عمه «عودة» فزجرته العيون القوية حتى خمدت نار الأفكار التي اعترته وهو يضيق بالابتعاد عن صلب الموضوع إلى أحاديث قدر أنها فرعية.

قال «نوري» بتؤدة:

- عينوا خير، ترى العود الأعوج إذا جيت تعدله كسرته، وما يخفاكم

يالاجاويد، مؤونة هلي تيجي من «حوران»، كيف اقطع الشعالين عن الديرة! والدنيا مصبحة ممسيه، انتوا املكوا «العقبة» ويصير بعدها خير.

يسارع «نسيب البكري» إلى إظهار استيائه:

- يا شيخ، جيتك قبل شهرين، وقلت املكوا «الوجه» ويصير خير!!

تجاهل أمير الرولة غمزة «البكري» وعتابه، وانبرى «عودة» لتغيير أسلوب المفاوضة، فأخرج أكياس الذهب من حزامه ورصّها بهدوء.

- عطية الأمير للشعلان يا شيخ.

لم ينظرها «نوري» بعينيه، وإن كان في دخيلته يدرك كم هو بارع ومراوغ هذا الحويطي الذي يعرف مواطن ضعف الصحراء، تجاهل الشيخ أكياس الذهب، وتحدث للشريف ضاحكاً:

- الذهب ما هو عندنا غير وسخ الإيدين، تراك تدري من أول من قال حنا رجالك، وتعلم سالفة الفرس الشقرا، كلمة السر بين الأمير والشريف حسين، ما كنا مطاريشه بين مكة ودمشق!! وبعدنا مثل ما خبرنا زلامه، لكن لزوم أضمن سلامة رجالي، وهم دونك، من يريد يلحق بالأمير، بخطره.

تنحنح «عودة»:

- الشمس ما تتغطى بغربال وفعال النشامى ما تنتسي.. والرجال تطمع ببعضها..وطمعنا بيك، ودنا نمر الوادي يا الشيخ بأمان.

حكّ «نوري» رأسه من تحت عقاله، وتفكر، كان الرجل سياسياً لا تأخذه العاطفة. ولديه من القياسات التي يجيد احتسابها، والتدبيرات التي لا تحتمل الخطأ ما يساعده على القرار، إن رافق جند الأمير خسر الأتراك، وقطع أرضه عن نبع إمداداتها، وإن لم يفعل، قد تنقلب الخسائر عليه وحده.. وهو يعرف كيف يمسك بالعصا من الوسط، ويعرف على أى الأطراف يتقدم ومتى يتراجع.

- سوالف السامر ما عليها رباط، والحرب ما هي سوالف. الطيارة تبغي طيارة، المدفع يبغي مدفع، والترك حيالين.. هذا هم طالبين ولدي «نواف» - ضيف!!

والحق إنه رهينة، حيلة نفهمها، وأنا لأجل ألهيهم واسوف الوقت رسلت ولد أخوي «طراد» ولكن عليّ إذا جزتم الديار ورجعتم غانمين يصير خير، يالاجاويد هذى حرب عمومي ما هي هرج صبيان، لو ناوشتم بالزرقا تصرفون النظر عن الوادي وتمرون.

ويهتف «عودة»:

– هذي أمرها سهل، غد يقوطر «زعل» ومعه «أورنس» لوادي الضليل يلعبون بخط الشمندوفر* ويكسرون القبضان ويردون، نلقاهم عند «العقبة».

هز «نوري» رأسه ونظر باتجاه «لورنس»:

– يكون زين، ترى العربان تضيق بشوفة النقليز، ومن يصدق النعجة تسرح ويّا الذيب!!

رغم محلية التعبيرات إلا أن «لورنس» فهم، وبلع ريقه منزعجاً، وعندما محش الرجال أيديهم من الدهن واللحم الذي أولمه شيخ الرولة وتمتموا:

– خلف الله عالمعازيب.. لحية غانمة.

وقال بعضهم:

– جزور زين، وطعمة كريم.

انحنى «عقاب» إلى كتف «زعل»:

– وديت يكون الشعالين معنا، هاذي كنه معنا، وما هو معنا.

نظر «زعل» إلى الوجه الناصع البرىء، وتفرس في عيون العاشق الذي يفهم أكثر من الآخرين ثم لا يفهم شيئاً.

– يا «عقاب» حصانين ع مربط ما تنربط.

خرج الركب من أرض السرحان مثلما دخل، تاركاً «وسخ اليدين» في أكياسه فوق سجادة خيمة الشيخ، تحدثوا عن مشاغلة الأتراك في الزرقاء و«لورنس»

* الشمندوفر: خط السكك الحديدية.

و«زعل» يذهبان للمهمة.. ثم ساروا في أجواء حارة قاسية، صامتين، فراسخ متتالية دونما تفسير.. شعور غامض يسيطر على النفوس، وقد توجس «عودة» لانقطاع ظهور الحيوانات البرية فما من غزال ولا أرنب ولا طائر، أما غربان زاغ البقع بصدورها الزرق والخضر، فإنها تتابع الإبل، تنقر القردان من أدبارها وفروة أجسادها، وتحفر القروح فتربك الإبل، وتزعج السائرين، فيطردونها مشوحين بأيديهم:

- غرب.. غرب، مخيريز يبط لهائك.

تبتعد أمتاراً ثم تعود.. هذه الظواهر التي تجرى بهدوء توحي «لعودة» بأن الماء لا يوجد إلا في دلّي السقاء المربوطة إلى جوانب الإبل، ويكاد يشك بحدسه إذ يعرف أن في المنطقة آباراً كبيرة.. ولكن مسيرة أيام أخر تؤكد حدسه الأول، إذ سرعان ما يكتشفون أن الأتراك عمدوا إلى إفساد كل آبار المياه في المنطقة.. عندها راحت المخاوف تعبث بالرجال، وقد يتذمر أحدهم قائلاً:

- تراها طالت.

ثم لا يملك إلا الصبر. لما توغلوا شمالاً التقوا مجدداً بلورنس «وزعل» عائدين من مهمتهما التي شاغلت جنوداً قليلين إلى جوار خط سكة الحديد شمالي الزرقاء، ترنح «لورنس» متعباً شاعراً أن الشمس ضربته في منتصف رأسه، وتوقف الركب للراحة وارتدى «لورنس» كوفية بيضاء خفيفة، ثم تمدد أرضاً فاتحاً دفتره الكبير وراح يكتب بإسهاب، والبدو يراقبون ضاحكين حركة القلم التي تتعجل من اليسار إلى اليمين.

أزعج الوقوف «عودة» إلا أنه رأى فيه فرصة لمناقشة ما سيكون مع الشريف «ناصر»:

- نرتاح!! وإلا نهجم!! هذي بكفه وهذي بكفه، الأوله تموِّت الرجال جوع، والثانية يكون النصر ونصل لإمداد العقبة.

- تموِّت جوع!! علمي بالرجال طالعة من مجاعة، أكلنا بها الشعير والدخن.

- هنيـة ما بي شـعيـر ولا دخن، ما بي غـيـر مطايانا، إن جاعت الرجـال أكلت مطاياها، والحرابة مطايا.

يدرك «عودة» أن رجـاله متـعبون، ومـحبطون بصـورة أكبر مما يبـدو، ويعلم أن سيـقانهم قد تـقرَّحت لطول ما شـدت الأفخاذ حـول الخرج والسـرج، يسمح لهم بتنويخ الإبل لحظات، ثم يعاوده الحماس، فيهب صارخاً:

- الفارس الفارس ضاري على تعبه.. هيه يا رجال..

ويصاب الـشريف بالدهشـة وهو يرى من كانوا مـتهـالكين أرضاً يقـفزون إلى شدادات مطاياهم ويهتفون وراء «عودة» ويهللون:

- ويش يخلي الرجال تفز مثل العفاريت وراه؟؟

ويرد «زعل» بفخر:

- «عودة» شيخ تتحزم به الشيوخ.

عند لحظات الاسـتـرخـاء القـصـيـرة، ترقب عـينا «عـودة» حـركـة «عـقـاب» و«الكحيلة» اللذين يجـوبان القفر ويلوحـان في موقع متـقدم كالضبـاب، وقد لمح أخيراً الحركـة السريعة التي كرت بها «الكحيلة» عائدة بفـارسها تتطاير جدائله دون حرص على تثبيت «الشماخ» فوق رأسه، وصوته يرتعش:

- الجندرمة.. عند أطراف الوادي يا عمي.

انشرحت أسارير «عودة»، ودب فيه حماس مفاجىء، في حين ارتبك «لورنس» جامعاً أوراق دفتره التي تناثرت، نخزه «عودة» بعقب بندقيته:

- هي.. قم تفرج كيف الحويطات تطاعن.

برزت أوردة جيده الضخم، وانطلقت صيحته:

- طاب الموت طاب.

صرخة جمعت الرجال الذين امتطوا خيلـهم وإبلهم، وانحدروا يواجهون كتيبة الأتراك.

فـوجئت الكتـيبـة بجن الصحـراء يتـساقطون من أعلى المنحـدر، وقد شـرعت عباءات شيوخهم في الريح كأجنحة الخفافيش، واختلطت الضحكات بالصيحات، بالغناء:

صاحوا وصحنا وانتبه ذكر «عودة»   روّح كما شيلا قوياً امـــدوده

صاحوا وصحنا وانتبه كل فن صاح   هذاك عزرايين قضّــاب الأرواح

طالما شاهد الأتراك هذا المنـظر حين تندفع القبائل لقـتال بعضـها، أما أن تنهـمر كسيل عرم مبرقع الألوان والرايات والأثواب، مستهدفينهم، فهذا هو الأمر الجديد، وقد سـمح وقع المفاجـأة للبدو الذين تبـاينت قبـائلهم بالتخلل السـريع وسط جند الأتراك، وعندما طارت فـرس «عقاب» بمحـاذاة «لورنس» تركت وراءها غيـمة من عجاج أعشت ناظريه، فراح يسعل مختنقـاً بالرمال التي خالطتها رائحة ملح البارود وضبابـه الأصفر.. وإذ انقشع الموقف مـجدداً، شعر «لورنس» بإثارة لا حـدود لها. ومن مـوقعـه كان يبـحث عن أبجدية للـكلمات تسـعفـه.. «كيف أكـتب عن هذه الفرسان الطائرة؟.. ماذا أكتب؟؟».

إنجلى الغبار وفرسان البادية يقودون مائة وستين أسيراً، ويتصايحون:

- بارودي عرفت رميها.

عَـدَّ الشريف الأسـرى وأوكل بهم «نسـيب البكري» متـخـوفاً من لهـفة البـدو وميـلهم إلى إبراز زهوة النصر والتي لمحـها وهم يعـدون جثث القـتلى ويحـصون ثلاثمئة قتيل، ثم يتفقدون أنفسهم ليحصوا ثلاثة عشر شهيداً.

حين بدا لهم أن المهمـة أنجزت، ركنوا إلى السكون، فـاستشـاط العقيـد «عودة» نشاطاً، وبلغ حماسه وإصراره الذروة:

- ترانا ما نصبر على الجوع فوق أيام ثلاثة.. حيهم النشامى... حيهم.

اندفع الفرسـان مجدداً، وتوهجت في المقدمـة غرة «الكحيلة» وجسـد «عقاب» المشوق كأنه واقف على صهوتها، وتمتم «عودة»:

- هالوليد يعجبني، لا يجوع ولا يظمأ..

«عقاب» أشدهم ظمأ وأقدرهم على عطشه.. أين أنت أيها البحر؟؟

عاد «الاسبور» يؤكدون أن «أبو اللسن» محصنة بالأتراك، وأن هناك نقطة خفارة مزودة بمدفع جبلي عند عين الماء، لكن «عودة» اختار المواجهة، فانحدر بالخيالة عصراً عن يمين الوادي، ودفع الهجانة عن اليسار، وإذ الشمس تنحدر معهم من كبد السماء، صاروا خيالات وما عادوا أهدافاً سهلة لمدفع الأتراك الجبلي الذي راح يفرغ طاقته في الفراغ، تعالت الصحيات مجدداً والبدو يخترقون صفوف الجند.. وإذ هبط الليل صار المكان صامتاً صمت المجندلين على أرض أبو اللسن. عاد «عودة» يحرك رجاله ويدفعهم بقسوة إلى إكمال المسيرة وهو يستشعر أن العدد الذي يجره وراءه من الأسرى عبء ما اعتاد تحمله في غزواته ولكنها قوانين جديدة لحرب جديدة، وسمع الرجال صوته بوضوح:

- قضيب الغزو لا تمسونه ولا يحل دمه..

متعبون، جائعون، حاصروا «الكويرة» و«خضرا» و«كشارة»، وأطل عودة من مشارفها بعقاله الأسود وكوفيته الحمراء، وقد رد أردان قميصه فبرزت ذراعاه.. رأى المدينة البحرية تغفو على البحر الأحمر.. أقرب من حبل الوريد صارت «العقبة»..

تلفت «عودة» إلى فرسانه ثم صاح:

- يا «بن جاد».

برز الشيخ «ابن جاد» إلى العقيد. فلوح له:

- هاذي العقبة، دونك وطاها.

خفق قلب الفارس الذي اختاره «العقيد» ليقود الهجوم، تطلع إلى الفرسان فأومأوا حاسدين، ثم راحوا يسابقون الريح على صهوات الجياد، يطير بهم العنفوان وتتردد أصداء صيحاتهم، طاب الموت.. وكان صوت «عودة» الأعلى:

- جيت وأنا أخو «عليا».

صفق «عقاب» عنق الكحيلة» مشجعاً، وقال في قلبه:

- لأجل عيونك يا «مزنة».

و«الكحيلة» التي مـا اعتادت أن تكون مطية، حـتى عندما تحمل جسـد «عقاب» مستشعرة الألفة الحميمة، فإنها لا تظن أن مهمة تقتضي منها فعلاً بعينه، أما هنا، في موقع السـيف فإنهـا تأخذ من روحـه لروحهـا، وتدرك أن اندفاع الدم في جسدها بعض من مهمتها، كأنها منذورة.

تدافع الأتراك أمام الهجوم المثلث من جهات العقبة المختلفة، واختلط المتحاربون فتقافز البدو من فوق جيادهم معملين شباريهم فى رقاب المشاة الأتراك، ومن أفلت منهم تناثروا بـين بيوتات الآجـر الطينيـة وشـجيـرات النخيـل، واعتـصم البـعض بالمسـجد، وهم يرون البـحر مزروعـاً ببواخـر الإنجليز.. أفـزعهم التـحام الأجـساد المحاربة، وقد أقـسم أحدهم أن رصاصة أصابـت عقيد البدو «عـودة» بمقتل. وكاد يكذب عينيه وهو يراه لايـزال طائراً فوق صهوة حصانـه، في حين تدافع الترك نحو المسجد تاركين خيلهم تتفرعط، فإن صوت «زعل» جلجل ينبه الرجال:

- إياكم وشرهة العقيد.. كل افرس امنيره وكل بل أشهب الظهر.

ولأن الإبل تأخرت، فـقد تمكن «لورنس» من النظر إلى مـا يحدث أمامـه وكأنه حلم بعيد في زمن مضى، أدهشته الحمى التي اجـتاحت الرجال، وشعر بدمائه تفور على وقع الصـيحات المذهـلة التي تزيد المتحـاربين حمـاسة، اصطخبـت روحه في جلبة الصـياح فهـبط من سنام ناقتـه، وتهدج صدره انفـعالاً ثم رفع مسـدسه يطلق رصاصته فـي الفضاء، إلا أن طلقته المتوترة أصـابت فخذ الناقة «نعامة»، فـعافرت، وأفجع رغاؤها الإبل، ثم سقطت بثقلها جارة تحت قوائمها جسد «لورنس» الصغير المرتجف. وغابت الدنيا عنه في إغمـاءة.

أطلقت المدفعية طلقـاتها من البحر باتجاه المسجد القـديم، فانهار جداره الطيني، ومن الثغـرة الواسعة التي فتـحت فيه، خـرج خمسة عـشر تركياً، آخـر فلول الترك رافعين أيديهم استسلاماً.

حوّط «ناصر» «جنده» حول سبعمائة أسير لحمايتهم. وجمع البدو جثث ستمائة

قتيل، وإذ أفاق «لورنس» من إغماءته لم يصدق أن أربعة من البدو فقط قتلوا في المعركة.

صارت «العقبة» لنا، زغرد حويطي وهو يهتف:

- بحق العود.. صارت إلنا.. إلنا.

كانت «العقبة» لنا منذ الأزل.. هكذا همس البحر لعقاب.

أخيراً أيها البحر، ها هو الأزرق المخضر، ها هو الموج يصطفق، وها هي صخور المرجان ملونات بقزح، رجفة في الفؤاد ولحظة قدس، بهذا الماء يفيض بين يديك سَنُلوِّن الصحراء.

وقفت «الكحيلة» حائرة في مواجهة البحر. تسبل هدب عينيها حيناً وتبحلق حيناً.. ترجل «عقاب» ومضى، رمل أصفر، وخشخشة أصداف تتكسر تحت وقع خطواته. يحاذر كي لا يكسر زوايا الأشكال البديعة، يجمع بعضها في جلبابه قلائد لمزنة. ويشتم عبق البحر دافئاً كأنه رائحة الميلاد.. رحيق حي لا يشبه شيئاً، وصوت البحر عند اندفاع الموج وانفلاشه على رمل الشاطىء يُهيج صبابات روحه.. تبتل قدماه إذ يقترب أكثر. فيتوقف. تترنح روحه الصادية ويهتز جسده بهجة، تنسحب الموجة التي لامست قدميه فينتظر متلهفاً واجماً نشوة الأخرى.. يرقبها قادمة تتخذ شكلاً مدوراً تتقدم وتعلو ثم تنحدر، تنزلق عند حد الرمل وتفترش المكان مداعبة قدميه من جديد، فيهزه الفرح، البحر يراوده ويدعوه للعناق، يصيح مبتهجاً:

- الماي.. الماي.. يا «مزنة».

يندفع مثل طفل غرير إلى قلب الموج، يفتح ذراعيه ليبلل صدره الجاف، يحتمل ثقل الماء في نسيج ثوبه، ويرمي جسده إلى حضن البحر الدافىء الحي فتزغرد روحه.. «مزنة»، أنت معي الآن.

جمالك غيه، والبحر عطرك، وكحلك، وحنا جدايلك يا محنيه.. ثقلت ملابسي وخفً جسدي وكأني أطير، كأني أسبح في المجرة، كأنها لذة لقائنا الأول في واحتنا المعزولة عن الكون.

يرقص مع دوران الموج وينتشي إذ يضرب البحر ذوائبه، يفاجئه طعم الملح على شفتيه، البحر مالح، يعرف هذا، فما الذي يفاجئه؟

أنت وأنا والماء.. ليت عينيك يا أبي الحكيم ترى فرحتي.. ليت قلبك يطل على شبابيكَ قلبي آن الفرح..

يستشعر لوهلة أن عيناً ترصده، يجفل ويستدير، هناك عند خط الأفق يلمح جسد الباخرتين الإنجليزتين «دفرين» و«أوريليوس» تجوسان الماء، فيسقط قلبه مثقلاً. يجر أذيال ثوبه المثقلة بالملح، ويخرج من الماء كسيراً، ليستند إلى أثلة ذاوية عند «رجم مقبول»* ، يتكيء على جذعها المحترق، ويستنكر الاكتئاب الذي سرق فرحته فجأة.

يصل الأمير إلى «العقبة»، ويقف على مشارف البحر خاشعاً يرقب عند الشاطيء القريب توأم «العقبة» «أم الرشراش»* فيتأكد له أنها صارت موقعاً استراتيجياً للإنجليز، وأنَّ المعركة قد بدأت اللحظة.

يمتطي «لورنس» «النعامة» قاطعاً «النقب» إلى «قناة السويس» ليقدم تقريراً، ويسعى في جلب المؤونة للجيش الذي يتكاثر في «العقبة»، ويطير «جعفر العسكري» إلى «القاهرة» للإطمئنان على أسرته، ويقود «عودة» رجاله إلى «النقب» حتى يصل بهم إلى البقعة الأكثر ارتفاعاً وكشفاً. يقف والفرسان على «مشارف الشيوخ» فيرى الأرض فضاءً ممتداً تحته، أحقاً يرحل الأتراك ثم تنمو بذرة الحرية في هذه القفار المالحة؟ يهز الشيخ رأسه متفكراً ويلتفت إلى «زعل» الذي يسير في أثره صامتاً.

– كل من يلوذ بينا يلحق «عالقويرة»، ترى أشوف ألواطاً سهل تحويشها. صعب تأمنها، وهذا زمان يأكل الأخضر واليابس، وأنا ودِّي آكل الزمان، أقرمشه

---

* رجم مقبول: رجم شنق الأتراك عنده بدوياً بريئاً لأنه تحدث مع الإنجليز.

* أم الرشراش: الاسم العربي «لإيلات» اليوم.

بأسناني واحوشه بإيديه.

تسابقت النسوة لاستقبال الفرسان، ناثرات شعورهن، رافعات الغناء:

يا مرحباً بالخيل واللي عليهـــن   عليهن أبو عناد مطلع كداهـــنه

وغنت «مزنة» بصوت راجف:

يا مرحباً بالخيل وإن جن مع الدوح   عليهن «عقاب» يـا وزين الـروح

أطل الحكيم من مغارته، فلمح بقلبه بهاء «عقاب» بين العائدين، فاستراح، ولوّح «أبو الكباير» بالباكورة، وتدافعت الكلمات على لسانه:

أبدي بذكر اللي على الكل بـادي   رب الملا والي جميـع البـوادي

قم يا علي تشرف على كل طايل   شديت غوصاً تقطع الدوحايـل

فوقها غلام ما جنى بالفعايـل   متعود قطع الفجـوج الخليـات

عنه تجوص الخيل يوم يهـد   عن حرب بوتايه إلى له الفعل عادات

دفعه «دحيلان» ممازحاً:

- خاف الله هاظا قصيد يوم الطور.. مابي قصيد جديد؟ امحلت بالشاعر؟

لا يعجز التثبيط من همة «أبو الكباير»:

- هاذي أيام يقصر حدها القصيد ولا يزينها ولا يوفيها حَقَّها جر الرباب.

يعرف «عقاب» أين يقوده قلبه بين الجموع، و«مزنة» لا هي بالعجلى ولا المتأنية.. روح ترف لتلاقي روحاً، في حومة الصخب وجلبة العائدين والمستقبلين، معلق الصمت بينهما.. يسيران جنباً إلى جنب.. تتبعهما «الكحيلة» التي تعرف أين توقف سيرها، وتستكين، وفي الخباء حيث تعزل السجف خيالات الآخرين، وتمنحهما خصوصية اللقاء، يقتربان.

- شفت المي يا «عقاب»؟

- شفتها.

يلملم بأصابعه المتشققات خصلات شعرها المتناثرة فوق الدوبيت اللامع.

يقترب أكثر، يشمها، فيتضوع السمك، تشمه، فتغرق في بحر «العقبة».

يجدل شعرها غدائر صـغيرة يدليها فوق نهدها المترجـرج شوقاً، وتفك بأناملها خصلات شـعره التي ما انفكت منذ جدلتهـا له قبل السفر.. تشـتم بحرص العاشق البخـيل العبق الذي أودعته الصـحاري بين الخصـلات المعجونة بالصهـد والتراب، ويذوبان رويداً رويداً، يضمهـا ويعودان كما في الأزل واحداً، يغمـرها وينصهران، وإذ تتساقط قطرات العرق الندية عن وجهه إلى وجـهها، ترتجف في ذروات صغيرة متتالية.. تقول في سرها.. ذهب سراباً وعاد بحراً، كان فتى وصار رجلاً، ويقول في سره، طلعت زهرة واكتملت شجرة، كانت خشفاً وصارت امرأة.

«العين لا تعار للبكاء، والسيف لا يدفع للأعداء»

«سيرة الأميرة ذات الهمة»

تربع «عقاب» في حضرة الحكيم.

- الموت قدامي وبندقي ع كتفي.

سرت وراءهم وكأني قدامهم، تفتحت الصحراء زنبقة برية طلعت في قلبي كعيون «مزنة»، وسمعت صوت الموج يصطفق ويتدفق ويناديني دون سواي، كل رملة في بحر «العقبة» هتفت باسمي، أتراني كنت مضبوعاً يا أبي؟

قال الحكيم: الأرض لا تضيع أبناءها، الأرض تشتري أرواحهم فيخلدون وتشتري دماءهم لتكشف أسرارها، حين تفتح جسدها وتغمر الشهداء بالشذى والعبير، أما بول الضباع فذاك للمناكيد الأذلاء، يقتفون أثر النجس إلى مقاتلهم، وييمم العشاق صوب الحياة.

- وكيف للمرء أن يعلم مسبقاً؟

- كل الناس لا يعلمون، لكن الأحرار يجيدون أسر الضباع، ويصنعون من جلودها الرمادية الشهباء ربابات يوقعون على أوتارها رجع حنينهم.. ذلك معنى أن تشرق شمس البصيرة في أعماقك، هي لحظة مهيبة تفصل بين النور والظلام، مثلما الفاروق، هي نفسها التي أمسكت سيفك عن غزو، ثم أطلقته في طلب الناموس.

يفهم «عقاب» شيئاً وتغيب أشياء.

يسنده الحكيم بذراعيه: انهض لا تطل المكوث في عتمة الكهف، الحكمة داخلك، والحقيقة تحت ضوء الشمس، وأنت بين هذه وتلك مكر مفر.. الحكمة تنادي في الخارج، في الشوارع تعطي صوتها *

مدهش هذا التحول في حياة «عقاب»، فمنذ زفافه ومشاركته في احتلال العقبة، يتواجد باستمرار في مضافة الشيخ، ويشارك الشبان لعبة النيشان ويتحمل برحابة

* الأمثال لسليمان - الإصحاح الأول.

صدر مداعباتهم في أن الزواج أصلح من حاله وأنزله من مرتبة الحكماء إلى مرتبة الرجال.

إذا ما أشرقت شمس الصحراء مصفرة، لطيفة في أول النهار فأودت بطلل الفجر، غادر عقاب الخباء وسبقته «مزنة» وقد اصطحبت معها زكوة الحليب واقتربت من ناقتها مقربة الحوار الذي يحك رأسه بفخذ أمه، فتتحرك الناقة مرحبة بوليدها.. ومع الضغط الحاني الأليف لأنامل «مزنة» على ضرعها يفيض لبناً، يشخب الحليب بين أصابع مزنة إلى الزكوة، فإذا ما فاض برغوته الغنية رفعت القصعة قائلة، هذا نصيب الحكيم وفي قدح صغير تستزيد الضرع السخي وتقرب القدح إلى فم «عقاب» فيدفعه نحوها، يرتشفان معاً، وتخط الرغوة الدافئة الشفاه فيلتقطان ما تجمع منها كل بشفتى حبيبه، ثم تغطي رأسه بكوفية هذَّبتها يداها، وإذ يشدها إلى صدره، تتملص بنعومة وهي تغني:

يامرتكي عالسيف حبك جرحني

بين الخلق والناس حبك فضحني

يشت عقله، فيشدها ثانية وتتمنع دلاً:

- إنس وإلا جن؟

- ريم يا ابن الحر.

* * *

دبت الحركة في المضارب والشمس فضَّاحة، تأكد من ثبات كوفيته، وخرج إلى الفرسان الذاهبين إلى خيمة الشيخ، فلديه ما يثير اهتمامهم هذا النهار، إذ أرسل له الأمير بهدية الشريف «حسين بن علي» من «مكة»، واشرأبت أعناق الرجال وتدافعت مناكبهم وهم ينظرون السيف المذهب المرصع بالأحجار الكريمة، ورغم أن «عودة» امتلك قطعاً نادرة سابقة، لسيوف حجازية، وخناجر يمانية، وبنادق إنجليزية، وألمانية، ومسدسات فريدة، إلا أن فخراً مختلفاً جعله يشعر بأن هذا السيف مميز، فراح يعرضه مزهواً ويتلمسه بود، وقد سمح لولده «محمد» أن يرفعه

فإذا ما انحنى جسد الغلام تحت ثقل السيف، ضحك الرجال، وتأمل «عقاب» الهدية، فداهمته مباهاة نبيلة غامضة.

هذا ليس سيف «عودة»، إنه سيف كل فارس في القبيلة، سيفه هو شخصياً، لابد «لمزنة» أن تراه، ألم تغني هذا الصباح يا مرتكي عالسيف.. سيجعلها تأتي لرؤيته وتكحل عينيها ببهائه.

- جاكم طارش يا عمي.

تصاعدت الحركة في مضارب «القويرة» مبكراً، و«زعل» يعلن وصول ثلاثة من شيوخ العشائر القرويين إلى الديرة، والرجال الذين سمعوا قبل مجيئهم عن الصعوبات المالية التي يعاني منها عودة لجمع الفرسان، كانوا متأكدين من تحقيق مسعاهم لديه.

- الإبرة ما تواجه المخرز، والحرب موت أحمر، لا ناقة لنا بيها ولا جمل، ابن الشريف عالراس من فوق، لكن البلاد للخليفة من يوم وعينا، والترك يحمون قرانا ومواسمنا.

أبناء القرى لهم المواسم يخافون عليها ويحرصون.. وهو ابن الفلاة له الأفق. من ذا الذي يسرق منه الأفق؟

- علامك صافن يا شيخ؟؟

سأل «ذياب العوران» متوجساً من صمت الشيخ الطويل، وأشد ما يخشاه أن تأخذ الشيخ أنفة وكبر من ذكر دور الترك في حماية المواسم من غزو البدو فينصرف عن مقولتهم، وأدار «حسين كريشان» الحديث إلى حيث قدَّر أن اهتمامات البدوي تروح فأكد أن إمدادات الترك من مال وغذاء لن تنقطع أبداً، ضحك «عودة»:

- ها.. الأتراك يطعمون الخشم لأجل تستحي العين.. خاف الله حنا ما نستحي!

أدرك «ضيف الله أبو الصقور أن «عودة» بدأ يسخر، مما سيجعل الحديث بلا

معنى، فراح يحكم الإحاطة بجديد المغريات وجليلها.

- مـا هي سالفـة لقـمة، وندري بك تطعـم العربان لو تريد، السـالفـة إمارة مـا ينازعك بيها مـنازع، هذا يومك يا «عودة» تصير أميـر «الشراه» كلها، ما يثـور بعير ولا ينيخ غير بأمرك.

عاود الشـيخ صمـته، في حين تململ «مـحمـد الدحيـلان»، وهو يتفـرس وجه «زعل» علَّه يدفع الشيخ للحديـث، والشيخ ينظر وجه «عقاب» ويبتـسم كالغائب، كما لو أن وجود «عقاب» روح مسلطة غرسها الحكيم بينهم، فعطلت اتخاذ القرار، نظر الشيخ إلى رسل الأتراك الثلاثة، أولئك الذين طالما أخافتهم وقضَّت مضاجعهم حمحـمة خيله في غزواته. تاريخ من العداوات حين يـزرعون ونغنم، وها هم اليوم فى ثوب مخـتلف هو نفسـه فى رؤيا مخـتلفة، يتراءى له جـيش عرمـرم يخرج من «الشراه» ويمتـد مجتازاً المدن والبـوادي والقرى، يستطيع أن يرى مـؤخرات الأتراك في هروبهم.

داعب الرمل بالباكورة المعوجة، رافعاً طرف البساط الملون الذي افترشه، مسلطاً نظرة غامـضة في تلك الزاوية، شمل السـكون المكان، ولم يعد هناك ما يتـحرك إلا باكورة الشيخ، وأنفاس الرجال، حين قدَّر أن صمـته الطويل ما عاد له مبرر، همس مكرراً ترحيبه:

- حيٍّ الله الشيوخ.

دق قلب «عقاب» كطبل أجوف، وردد الجالسون:

- حيٍّ الله..

نظر الشيخ إلى موقع الشاعر عند مدخل المضافة، ونادى:

- «دايود».. قرِّب.. قرِّب، سولفنا يالاستاذ بهرج الثعالب والكلاب.

تمطى «دايود» مـزهواً، فـالشيخ أراده لإبراز حكمـة، واخـتار القـصـة التي طالما أسمعها للفـتيان وهو يعرف أن في تفاصيلها إجابة الشـيخ على طلب الشيوخ، قال «دايود»:

- صلوا عـالنبي.. زيدوا النبي صـلاة، البـر يالاجـاويد من يوم بدأت الخليـقـة يعرف عداوة الثـعالب والكلاب، هذول الجدهم واحد وعداوتهم مـشرشة.. ويوم، ملت الثعالب وقال كبيرها نكتب «كتاب» نسميه «السلام» وندزه مع أصغرنا، نقول ما عاد لزوم للعداوة، وكل يمد إيده بالسلام وَكَّلت الثـعالب ربها في مطلبها، وسار بمكتوبهـا أخفـها وأسرعـها، يطوي البوادي طي، ويوم مـا طل ع ديرة الكلاب رفع بايده الجـواب، وقال أبشـروا تراني جـيت بخـير، زمـجـرت الكلاب وصرصـرت بأسنانها، جيت والله جابك، شاف بعيونهـا الشر، وقال لحاله جاتك البلية، صاح.. يا اولاد الكلب، اقرأوا كتابي، وتراكم تحكمون..

الكلاب مـا أمهلتـه شـرح الجواب، بطحـته بالخـلا، وقطَّعت كـتابه، ذرته فـوق الرمل، نهـشت لحمـه، ولومـا شبـابه وقـوته ما نفـذ بينهم، مـورم، مدمى، مـقطوع الذنب، رد أهله، قالوا يرحم والديك قلطت تناطح وإلا تطلب الخير؟

قال، يا حـيف ع الخيـر في غيـر أهله، قالوا، لويش مـا خليتـهم يقرون الـكتاب المختوم بختـم شيوخنا؟ ضحك، وقـال، يوم دزيتوني يا المفاهيم ع ديرة المناكـيد، ما دريتوا بهم لا يقـرون ولا يكتبون.. لكن اعلمكم قولة حق، حق الله، إنـهم يعرفون زين كيف يهدون ويعضون، وما شوف مخرج غير نتعلم لغتهم.

هلل الجالسون، و«دايوذ» يسترخي في مجلسه:

- صح لسانك.

وتململ الزوار وأفل الأمل في وجوههم إذ أدركوا المغزى.. وتحدث «عودة»:

- يا وجوه الخـير، لو كشفـتم جسد «عودة» تشـوفون العجب، ما بي مـغزّ دون ضربة سـيف أو طعنة خنجر، جـسد يعرف الحـروب ويخبرها. وعـجبي من الموت قصر عني ومـا لحقني، وهذي ديرتنا كنها جـسم «عودة» ما بيها مـطرح ما غرس به الترك سيوفهم.. تنسون؟

- ما نسينا، ندري بهم ما يبولون ع كف جريح..

- أها!! خطينا لو بغينا نخل الشوك بايدينا؟ بعون الله مقدَّر ليّ أطهر الديرة من

ظلمهم، درب عنها مـا أحيد لو انطوني إمارة الدنيا وكنوز سليمـان، ما بعيني شي، وأنا عاهدت الأمير وحنا قوم ما نبوق العهد لو عاهدنا.. وحيٍّ الله الضيوف.

خرج الرجال بالرسالة الواضحة الموجزة، في حين صفق «الدحيلان» كفاً بكف، وقهقه «زعل»، هرع «عقاب» إلى «مزنة» ليعانقها طويلاً.

- ما يندري من وين تنبع الماي.. كنها من بين ايديّ.

تسلل «محمد الدحيلان» مساءً إلى خيمة الشيخ وهو منصرف إلى تدريب ولده «مـحمـد» على ركوب الخـيل، فـسرق خـاتمه من كيسـه الجلدي المعلق في عمـود الخيمة، وخطَّ رسالة قصيرة إلى حاكم معان التركي يطلب فيها ذهباً يكفي لإرضاء الرجال الثائرين، وبجرأة ختم الرسالة بختم الشيخ.

- إن ما وصل مدد الأمير يصل مدد الترك.

لم يكن «محمـد الدحيلان» يعتـزم إخفاء الأمر عن «عـودة»، إلا أنه أخره أياماً لضمـان نفاذه. و«عودة» الذي فاجـأه اعتراف «الدحيـلان»، أغضبه التـصرف، لولا طيف «عليـا» يقف حائلاً دون لوم الرجل وعـقابه، مـا لبث «عـودة» أن وازن الأمر وضحك، و«الدحيلان» يقول:

- الحرب خدعة وحنّا بحاجة الذهب.

أدهشت رسـالة «عودة» حـاكم مـعـان الذي كانت آخـر أنبـائه إنَّ الرجل على عناده، مستمر في ولائه لجيش الشريف الثائر ـ التبس الأمر على الحاكم التركي، ثم قدر أن جشع البدوي غلب كبرياءه فباع إخلاصه بالذهب، حَمَّل ناقتين ذهباً وزاداً، وحوَّطهما بحراسة ثلاثة فرسان يقودونهما إلى «القويرة» هدية «لعودة»، متوقعاً أن قيامه هو بالذات بالمهمة التي عجز عنهـا شيوخ العرب سيرفع من اسمه، ويعلي من شأنه في «الأستانة».

كان «عودة» متـأهباً، اصطحب معه فارسين، ولبد ثلاثتهـم بين الصخور المسنمة بانتظار عطايا الترك، وإذ لاحت قـافلة الرشوة هبط إليهـا وفارسيه ملثـمين وأطلقوا النار في الهواء، فصاح أحد حرس القافلة محذراً:

- غزو الندامة، ردوا.. هذي عطايا رايحة لشيخ ما يرحم.. «عودة».

قهقه الشيخ وأرخى لثامه، فانكشف وجهه، ودب الهلع في قلوب الجند.

- وهاذا أنا «عودة» جاي اقنص العطايا بايدي.

نقل فارساه الهدايا إلى ظهر ناقته، وضحكا ساخرين، و«عودة» يأمر الجند بخلع ثيابهم حتى عرَّاهم تماماً، وسمح لهم بامتطاء ناقة الفرار، تَشَهَّدوا وانطلقوا مثل زوبعة، ضحك الفارسان واقتعدا الأرض.

عاد «عودة» بغنائمه إلى «القويرة»، وتسلى العربان بقصة الجند «المصاليخ» الذين عادوا برسالة ساخرة إلى حاكم معان.

أما الشيخ فقد تهيأ لجولة جديدة، ينضم فيها إلى الثوار الذين تموج بهم العقبة.. أولئك الذين تزايدوا عسكراً بوصول «نوري السعيد» وبدو متطوعين من الروله والزوايده والدراوشة والطقايقة والزلباني ومدنيين من رفاق دمشق. عندما تصفوا أمسيات المعسكر، يحلو الحديث وكأنما القوم في رحلة قنص لا معركة، أو قد تتكدر بمخاوف «مولود مخلص» من الإنجليز، وحيرة «جعفر» في ترتيب المعسكر، أو غضبه من حرمانه من لقب عسكري، جو مشحون بالمشاعر كما بالأحداث.. وسط هذه الأجواء يرسل «فيصل» بالشريف «عبد المعين» و«مولود مخلص» ليتمركزوا في وادي موسى مراقبين للطريق القادمة من الحجاز.. يفعل «فيصل» ذاك لأنه تكتيك عسكري مهم، وتظل أحلامه تتمطى شمالاً باتجاه دمشق، متناسية تعليمات «اللنبي» التي تقتضي عدم التقدم خارج العقبة.

خَفِّفْ الوطأ ما أظن أديم الأرض إلا من هـذه الأجســاد

«أبو العلاء المعـري»

تحدثت الأرض التي لا يسمعها إلا المريدون..

لأني البدء، ولأني المنتهى.. قبلكم كنت، حفظت ذاكرة جسدي مروركم، من لامسوني، ومن ساروا حفاة، أعرف رائحة الأقدام وما تنوء بحمله، أحفظ أسماء عشاقي، النبلاء منهم والأوغاد، من تدلهوا فيّ طمعاً بالجسد راكعين على أعتابه، ومن بذلوا أرواحهم لمجده.. أعرف طعم دمع الباكين المالح، وطالما تلقفته بشفاهي العطشى، وشربت.. آه.. كم كان مالحاً، غص حلقي به وما ارتويت، أعرف طعم من اعترقوا، خبرته وبلل مساماتي وامتزجنا.. أعرف طعم الدم حين تنبثق شلالات الجروح وتسيل، أتلقفها نهراً وأرغب حتى الارتواء.. وأفرق بين دم ودم.. دم الغدر لا أشتهيه، ولا يتحدر إلى أعماقي، يغثني فألفظه، ودم الحب الكبير يهزني، أتضور جوعاً إليه، أتحسسه، أضمه إلى صدري وأجذره.

أعرفكم واحداً واحداً، منذ وهبت مجدي لابني فخانني، مفتوناً بالغواية، كان جميلاً رأس الشهيد في صحن الذهب، بكيته دمعاً ساخناً، ووهبتكم أدمعي فتذوقوا.. منذ ذاك الزمان البعيد، وأنتم تمرون فوق جسدي، جحافل الخيل والفرسان تترك حوافرها أثلاماً شاقها الظمأ إليكم، أي الأمواه انتظر! دمعاً وعرقاً ودماً.. وكما أنا منذ الأزل، الشهيد، والشهادة، والشاهد، والشهد.. كما أنا أكون.

أعشق سنابك الخيل في خاصرتي، وأهوى هذا الفتى القرشي، وذاك، «عقاب»، لحمي ودمي، وسري الذي أودعته رحم الصقر وسقيته عرق أصالتي، وعهدت به إلى حارس حكمتي ها هو ولدي وأبي وأخي وحبيبي، يشد فوق «الكحيلة» زين الفتيان أعرفه.

لا يستكين جسدي لخطو الغريب. من جاؤوا من أقصى الدنيا يتمايلون رهقاً، لا يحتملون نزقي وقسوة دربي، لا يعرفون أسرار بوحي وعطائي، إذ ما ساروا في درب أحبابي اضطربوا، وأتململ لألفظهم، ما بي حاجة إلى الغريب، أعرف أن عيني «عودة» التى أعشق تكفيني، وأن زند «عقاب» يوسدني وأوسده، وأن أحلام الفتى الهاشمي تعنيني، وغضبة العراقي من أجلي، وصيحة السوري من لوني

وشاكلتي، لهؤلاء أبيح ذاتي، وأكشف خزائن جوهري. ودمهم وحده اشتاقه.
تحدث قلب عقاب بما لم يسمعه إلاها..

هذا زمان التوق ومقام الشوق، مربط الخيل والخيّالة، امتداد الأفق، عيني بعين الشمس لا ترف ولا تحيد والشمس التي جففت صدر الصحراء وأوقعت بسياطها أثلاماً متسعة في القفار الظامئة، هذه الشمس، في عينيّ، تنكسر.. يلف الصيف «العقبة» وينقل البحر رائحة الملح والمرجان، تتجول أريجاً هادئاً غامضاً حياً في صدور الرجال الذين أتوا من كل حدب وصوب.

هذا مقام الشوق، ما عادت النباتات المخشوشنة تطل بقاماتها الزرق من بين ركام الحجارة الملساء، ما عادت عيني تلمح بهاء الزنبق الصحراوي الأسود يشق دربه عبر حجارة الصوّان، حتى أعشاب «العقبة» الرقيقة التي تتنازع المكان مع الرمل، ارتحلت، صارت المدينة ملعباً للشمس والجند والأشَواق، أنحني على ركبتي، أفك جسد بندقيتي، أتلمس ماسورتها، كما لو أنها جسد «مزنة» اللدن، أَصُفَّ الخرطوش كما لو أنه سبائب شعرها المنثورة، رحيق ملح البارود يدير رأسي، أضم إليّ بندقيتي، وأدخل متاهات الجوى..

توهج وادي رم، جمرة، وطارت «الكحيلة» كما الخيل، وأولعت الإبل بهذا الجنون فسابقت، ما أشجى صليل الحديد يقتحم سمعي، إذ يقترب القطار عند «المدورة»، وما أقدس كفيك يا «سالم» وهي تحمل أصابع الموت.. الديناميت كما يسميها «أورنس» دنا الموت كما نقول.. ومن يحفل بالموت إذا دنا؟ انتظرنا و«سالم» يزرع المتفجرات أسفل العبَّارة، ثم هزت الانفجارات المكان، وتوقف صليل الحديد وشهيق البخار المتصاعد من صدر القطار، توشحت الدنيا بالغبار والدخان الأسود، وتدافعت الخيل محمحمة، وتصايح الرجال، كنا ستة عشر.. قفزنا إلى المقطورات المحملة بالمؤن، سقنا الغنائم، وكلٌ ساق عدداً من الرجال، قضيب الغزو غالٍ، الأسرى الذين يراهن عليهم الأمير، كانوا مذعورين يرفعون أيديهم،

يتقدمون بيننا زائغي الأبصار.. لمعت الغنائم في أيدي الرجال، ورفع بدوي شليله صائحاً:

– هاذا إحنا سوينا الهوايل، قولوا للأمير وين الذهب؟

صوت الحكيم ينهاني، هذا ليس موضع الندى..

شهق «أورنس» دهشة وهو يفرد بين يديه سجادة ملونة مزركشة ما رأت عيني في جمالها.. أخذ النقليزي أجمل ما في القطار.. المربعات، المثلثات، الأقواس والألوان.. السجادة التي تليق فراشاً لجسدك يا «مزنة» وما ذاك بموضع للندى، فسامحيني.

شمس الفلا، التي عيني في عينها تستعد للأفول، الرجال الذين مروا بيّ بدواً وسوريين وعراقيين ومن بلاد ما سمعنا بها، تهدأ ضوضاؤهم حين يسحب المغيب رداءه البرتقالي الموشى بالذهب على صدر السماء، وأتذكر دفء صدرك، وتعبث أناملي بتراب «العقبة» فأفيض نهر محبة، لماذا ينقطع نهرنا المتحدر من الأعالي؟ لماذا لا يواصل هديره، ويجتاز الصحراء إلى بحر العقبة؟ أي حزن عندما لا تصب الأنهار في البحار، اشرب أيها البحر الظامىء، اشرب من نهر روحي.

وحدها نجمة الشمال تأتلق في الفضاء البعيد، تغريني، تشتل روحي لأصعد باتجاهها.. صعب هو المرقى.. ينحني البراق للوعة الشوق ويذعن لأمتطيه.. أفرد أجنحة الوجد وأنزف لهفة إلى معراجي.. سهيل وحده مطلبي، تتفتح السماء لأتعمد بالنور، في هدأة الليل تتلاشى الأصوات، وتتمازج الألوان في فضاء بنفسجي.. ريح تعصف بي.. في هدأة الليل، ثمة ما يفصح عن أغنية تشق قلب الحياة، وتصل بي إلى فردوسي..

تلتقط أذناي ما يعيدها إلى صخب المعسكر.. من جبال «أوراس»* . أين هي هذه الجبال؟ ومن هو هذا الوجه القادم بأصحابه يزرعون المعسكر ضجيجاً، يختال «عبدالقادر الجزائري» فوق الخيل وصحبه «القرويون» يهللون.. وهناك شيء يحمله

* أوراس: جبال جزائرية.

القادري فوق جواده على سارية ويتركه يرفرف فى الهواء.

يمتليء فراغ قلبي إلى الأبد، أحط فوق سهـيل، أصل سدرة المنتهى، جالس على عقبي محـتضن بارودتي، عازف عن حمى الاحتـفال، أتعلق في نسيج الراية الملونة الخافقة، فيخفق قلبي، يتـشعلق فوق السارية صعوداً إلى ذلك الذي آراه لأول مرة.. تكحلي يا عيوني، اتركي مـرود التاريخ يخط بصرك والبصيـرة، ها هي جحافل من مروا في ذاكـرة الزمان، من خاطوا نسـيج الجسد، من أحـببنا وأبغضنا، من رفـعونا ومن غاصوا بنا، ها هو صهيل الخـيل عبر الدهر يعود على أشلاء الموت الذي دثرنا طويلاً، تعبـر في زهو الأبيض خيل خـالد وعمـر، وتستقـيم دولة بني أميـة بعرض الأرض، وفي حلكة الأسـود أحزان الحـسن والحسـين وسنابك بنى العبـاس، وفي خصب الأخضر تموج موشحات فـاطمة وخيالات قاهرة المعز.. يصب التاريخ كله في راية، يوشي دمي الأحـمر أطرافهـا، عودة البيت العـريق، ثم تسقط النجـمة في صدري واحـترق، تلمني رماداً رؤوسـها السبـعة، آياتها المقـدسة، فأصلي بخـشوع «الحـمـد لله رب العـالمين، الرحـمن الرحـيم، مـالك يوم الدين، إياك نعـبـدُ وإياك نستعين، إهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم، غير المغضوب عليهم ولا الضالين..»* الماضي، الحاضر، الآت، الجـسد والروح. الجفر، البتـراء، عمون، العقبـة، معان، بحيرة الملح، الشريعـة خضر الأخضر، يوحنا، ورايات جعـفر، مؤتة واليـرموك خيـلنا، نخلنا، أحجـارنا.. خيـامنا.. أحلامنا.. دمـشق العـبير.. مـوضع السيف وموضع الحب ومعبد العبادة، كل ما راح وما سيأتي، كل ما مضى وما تبقى وكل قطرة في دمي كلّي، كلنا.. كل الكل ارتفع فوق السارية ورفرفنا علماً.

أعرف الآن ما الذي أيقظ رمادي، تلك الراية التي اختصرتني وعَمَّدتني بالشذى والطين، أعـرف حكمة الصـقر الحـر وهو يرعى جـسدي في جـسده، حـتى تتفـتق البيـضة عني في هذا المكان بالتـحديد، في هذا الزمان بالتـحديد، تكحلي يا عـيوني

* القرآن الكريم - سورة الفاتحة.

بالراية، وموجي أيتها الروح فهذا هو الميزان والزمان.

في صباح المعسكر استطعت أن التقط الألوان الصافية للراية التي أرسل بها الشريف «حسين» من مكة لتكون علمنا.. راحوا يتأملونها ويحفظون تضاريسها، وكنت قد وقعت في عشقها منذ لاحت لي في غبش ليلة الأمس، توحدت بها لا فكاك.

مثلي كانت «الكحيلة» تحجل في مربطها، تهمهم لي، فأفهم، وتتسلى كالجميع برؤية لعبة الفرسان التي يتناوبها «عبد القادر الجزائري» والشريف «علي الحارثي».

بما أني لم أكن أحمق نهائياً، فقد رأيت أنه إذا انتصرنا في الحرب، فإن وعودنا للعرب ستكون حبراً على ورق، إلا أن الحماسة العربية كانت أداتنا لنكسب الحرب في الشرق، بالطبع كنت على الدوام أشعر بالمرارة والخجل.

«لورنس»

صارت ساحة المعسكر ميداناً للخيل والخيالة، يحدثهم «عبدالقادر الجزائري» عن بطولات جده الذي أورثه اسمه في الجزائر، وعن رحلة المنفى التي سار بها إلى دمشق، كي تقدر الأقدار للحفيد أن ينضم إلى جيش النهضة، ويشيح الجزائري بوجهه عن كل أزرق العينين يلمحه من ضباط الإنجليز على قلتهم. وإذا ما دخل المساء، أشعل نار القصائد في خيمة «فيصل»، منشداً توقه إلى مواقع أنبل، معيداً إلى الأذهان شيئاً من عنفوان التاريخ.

رفعنا ثوبنا عن كل لؤم	وأقوالي تصدقها الفعال
ولو ندري بماء المزن يزري	لكان لنا على الظمأ احتمال

يحب رجال المعسكر رؤيته نهاراً وهو يسابق الشريف الضحوك البهيّ الطلعة «علي الحارثي»، متباهياً:

- هكذا كان يفعل جدِّي.

ويندفع بجسده لامساً كتف فرسه بصدره، مثبتاً كفيه على ظهرها، ثم مرتفعاً في الهواء كرمح طائر، فإذا به فى الجانب الآخر من جسد الفرس التي لا تتحرك من موقعها.

يأتي دور «الحارثي»، فيلكز ناقته لتنطلق مثل سهم، ويسابقها الرجل بزيه الحجازي الناصع البياض أو القاتم الأسود كما ينوع متأنقاً، يبدو طيفاً هارباً، ويسبق «الحارثي» ناقته.. ثم يتركها تقترب، فإذا ما حاذته قفز برشاقة إلى سنامها، تجري هذه الألعاب في الساحة وسط تهليل المعجبين:

- حيهم.. حيهم.

تزداد رغبة «الجزائري» للتحدي، فيدفع فرسه التي تستهم تاركة الأفواه مفتوحة تُعرب عن دهشتها، وفجأة ينزع الفارس قدميه عن المهماز.

وفي لمحة ينتصب واقفاً فوق السرج. عندها تتضاءل بقية العروض. و«الجزائري» الواقف يمتشق بندقيته، ويسدد إلى هدف ما فيصيبه بدقة، وما زالت فرسه تعدو.. فإذا ما ارتفعت عبارات التعجُّب وكلمات الإعجاب، استكان الرجل

والفرس.. ثم ختم «الجزائري» عرضه المثير بـأن قاد فرسه لترقص على أنغام مزمار نفخ فيه أحد الرعاة تحية للعرض المؤثر.

يرقب «عقـاب» اللعب باسماً، ثم يميل إلى صدر «الكحـيلة» ليستريـح، فإذا ما سـمع صوت «عـودة» يدعوهـم إلى تمارين «النيشـان»، اصطف مع فـرسان البـدو يطلقـون رصاصهـم إلى أهداف منصوبة، وفي طرق المعـسكر المقابل يعـلو صوت «جعـفر» وهو يُعـيد تنظيم وتدريب الجند، أمـا خيـمة الأمـير فإنهـا شهـدت قدوم الشقيق الأكبر «لفيصل»، «علي بن الحسين».

لم تكن مهمة «فيصل» سهلة، حتى والده الشيخ الجالس في مكة يدرك معنى أن تجتمع هذه النقائض في جيش واحد. فيحـذر من اجتماع الشيخين «عودة» و«حمد الجازي» ويمنع إعطاء لقب «الجـعفر» خوفاً من طمـوحاته وينبه إلى الحالة العـاطفية المتأججة عند «الجزائري».

عدا ذلك فإن «فيصل» استمع إلى شكاوى كثيرة، فالسوريون يتذمرون من منح العراقيين رُتَباً أعلى، في حين كانـوا هم أول من وضع حجر أساس الثورة، في كل لحظة كان هناك فـتيل قابل للاشتـعال، و«فيـصل» الذي قضّت المنغصات مـضجع، أقبل على سجائره، واحتفظ بهدوء تام وهو يمسك بتـلابيب الحلم، مدركاً أن تحقيقه لن يكون دون كل هذه النقـائض، وقد قَدَّرَ أن هيـبة ووقار شـقيقـه الأكبـر ستنجح حملته التي يعدها للإلتفاف حول الأزرق بعيـداً عن الغابات التي انتشر فيها قاطعو الأخشاب من الأتراك، والتي لم تعد تربتها الطينية تصلح لسير الإبل.

حساسية الموقف تتطلب جلداً وصبراً لم يعتده أي من الذين جمعهم المعسكر.

في الليلة التي سـبقت المسير، تبرم «الجـزائري» علناً من وجود الإنجليـز بينهم، وتبادل نظـرات ازدراء مع «لورنس» وهو يراه يرتدي الزي الحجـازي ويسيـر جاراً ثوبه.. ركز عـينيه على الإنجليزي بـصورة أقلقت الجمـيع، إلا أن «لورنس» تصرف بسرعة مغادراً الخيمة. وقال الأمير بهدوء المعتاد:

- حنَّا نحارب بأموالهم، والحرب تبغي مسايرة.

إلا أن «الجزائري» هز رأسه، وفاه بكلمة قاطعة:

- ما أسير مع جاسوس.

لكنه عند الفجر رافق الحملة التي سار فيها «لورنس» والكابتن «جورج لويد»، كما خرجت فيها لأول مرة سرية من الهنود بقيادة «حسن شاه».

عند حدود «باير» تعثر الهنود، صارت وجوههم كالحة مرهقة، وأجسادهم النحيلة لم تسعفهم على الاحتمال، وأوهنت عزائمهم قلة الزاد والماء، فانثنى بهم قائدهم «حسن شاه» إلى «الأزرق»، وسرعان ما تعبأ فراغهم ببدو السراحين، ثم انضم كبار عشيرة الزبن إلى المسيرة، وشهدت الصحراء جمعاً غريباً غير مألوف ما مر يوماً بأرضها، كانوا يثيرون الضوضاء وتتداخل حركاتهم وأصواتهم وهم يهللون، فينشد «الجزائري» مجدداً:

- لو ندري بما المزن يزري!!

يبتسم الشريف «علي» ملاطفاً، ويهز «عودة» رأسه متعجباً، ويتململ «لورنس» ثم يتأخر بناقته لتسير على مسافة من مطاية قادة المسيرة.

تململت «الكحيلة» أيضاً من بطء المسير، و«عقاب» الذي شعر برغبة فرسه في الانطلاق راح يُربِّت جيدها مُهدئاً واعداً، جفلت «الكحيلة» فجأة وانتفض قلب «عقاب».. وتوقفت الخيل والإبل. كانت آبار باير تلوح على مرمى النظر، وسيل العطاشى من رجال وأنعام يندفعون نحوها، إلا أن صوتاً هائلاً ما عهدته الصحراء من قبل كأنه آت من بعيد، انفجار مدو ترددت أصداؤه، أوقف سعيهم.

ضحك «لورنس» ساخراً من الفزع الذي اعترى الوجوه، وعندما نظر إليه الشريف مستنكراً مستفسراً، هز كتفيه باستخفاف وقال موضحاً:

- هذه أصوات مدافع «اللنبي» في فلسطين.

دخل الإنجليز بثقلهم في المعركة مبرزين تفوقهم العسكري.. وتخلى الشريف عن استنكاره مظهراً فرحته.. وهلل البعض مستبشرين، فتلفت «عبدالقادر الجزائري»، وتهدج صوته متمتماً:

- لا تفرحوا، هاذي مدافع الكفرة تقتل المسلمين..

انفلش شعور غامض مقيت في النفوس، أول إشارة إلى قيمة تجمع العربي بالتركي، كان وجود الإنجليزي مقلقاً ووقوف العربي إلى جواره محرجاً، إلا أنها ليست الحقيقة كاملة، ففي لحظات كان يمكن لهذه القلوب التي أجفلتها إشارة «الجزائري» العاطفية أن تستعيد أعواد المشانق، والدم الرخيص، والمظالم والجوع والحرمان، تاريخ طويل من المواجع والعبودية التي ما حال بينها دين.. ثم يبزغ الأمل بأرض لا تدوسها سنابك العثمانيين.. لتذهب أيام السفر برلك إلى غير رجعة.. أصبحوا على مرمى العصا من الماء.

تدافع الجند والإبل والخيل إلى آبار الماء، وضاعت كلمات «الجزائري» في حمى الحماس للارتواء، فاشتدت وجيعته وغربته.

مساءً، انتحى «عقاب» بالكحيلة درباً، عيناه معلقتان على درب الحبيبة، كأنها في مكان ما هنا ترقب سكناته، تضم جسده المتعب وتدثره بهدب العين. سحر حنون يمسح صدره بالهدوء والطمأنينة. لا تستوقفه وجوه الآخرين المتعبة، وحده، وجه القمر المنير قرصاً فضياً في كبد السماء يستوقفه، ورداء الكون مرصع بالنجوم.

دثرني أيها الكون وامنحني يا قمري الفضي جَلَدَك على الذهاب والغياب والإياب، امنحني قدرتك على اقتناص شعاع الشمس وتحويله إلى حلم ساحر عذب ينير الليالي، امنحنى بهاءك، وهاك قلبي ازرعه بنورك، وَزِّعه على الأرض كما يُنثر الحب، واسقه بفضتك كما يمنح النهر الحياة للزرع.

ترجل الراكبون عند مضارب الشيخ «مفلح» شيخ بنى صخر- في صخب الاستقبال الحميم، ظل «الجزائري» متجهماً، وكان على الشريف «علي» أن يصرف الأنظار عن شجار وقع بين ضابط إنجليزى وآخر فرنسي تبادلا فيه الاتهامات بلغة لم يفهمها الآخرون، وفي حين انزعج القادة لهذا الشجار فإن البدو ضحكوا ومعهم ضحك «عقاب» دون أن يدري لذلك سبباً، وظل مبتهجاً حتى وهو يرقب

الحركة الحمقاء التي راحت فرس الشيخ «مفلح» تكررها، حافرة بإحدى قوائمها الرمال حول خيمة الشيخ، الأمر الذى استرعى انتباه الرجال فتطيروا، ولكزوا الفرس مرات كيما تكف عن حراكها المشؤوم دون جدوى، فما أن تهدأ حتى تعاود الحفر، ويردد الرجال:

– عذ بالله، يكفينا شرك يالمنحوسة.

تلهو بشجار الأغراب، ثم حركة الفرس إلى حين التنادي إلى طعام الشيخ «مفلح» الذي جاد، فتدافعوا حول أسمطته يغرسون أيديهم بين الأرز واللحم يسكتون جوعاً طال، وقام «عودة» بتوجيه دعوة مماثلة قائلاً:

– طعمة الرجال للرجال قرضة.

اكتفى «عقاب» بشرب اللبن المطبوخ، وعاد إلى «الكحيلة». عندما سقط الظلام مجدداً على تلك الصحاري، كان بإمكانه أن يتجرد من حزنه وحيرته، وأن يشف ويحلق، ويتواصل روحاً وجسداً مع الحبيبة..

مدد «عقاب» جسده، احتضن بندقيته يستشعر ملمس الأرض، كانت جافة، ظامئة، ولدهشته شاهد الحزن ينسل إلى روحه..

جفاف هي الأرض، كذلك الجسد والبندقية.. والفرس.

لم يعجبه تقلب حاله بين مد وجزر، بالأمس كان مبتهجاً واليوم وهو ممدد إلى طين الأرض يدق قلبه كما ينبض قلبها، كأنها جسده، يهرب إليها من الهجير تلفحه ريح الهزيمة، مع انحدار الأفق يطالع الصحراء ويحتويه التيه فيصرخ ملء صوته.. هل أنا موجود؟ في ديار كالغياب.. من أنا.. هاجت علينا صحاري الجزيرة فبعنا لقيصر مجداً ومنحناه سواد العيون وبكينا أسىً بدمع حزين..

كيف لنا أن نخصب هذا الكون، أي العطايا نهبها من دمنا؟

اشتد وجيب الأرض تحت الجسد المسجى حياً فوقها. استمع «عقاب» بجل جوارحه، فلهفت روحه إلى الأعمق والأحلى والأبعد.. غدٌ يوم جديد، والفتى الذي أغفى معانقاً بندقيته متمتماً، يا مظهر الغيوب وكاشف ما في الصدور

والقلوب.. «زارته أطياف حميمة في نومه حتى إذا ما استيقظ وفي صدره خفقة، تداخلت التفاصيل، عيون «الكحيلة» وجدائل «مزنة» وعطش الأرض، كلها رسمت كوناً واحداً، وعلى مقربة من مرقده لمح نبتة الصبار، كأنه يراها لأول مرة، صامدة، شامخة خضراء وسط اصفرار الصحاري الكئيب، مزينة بإبرها اللاسعة وأشواكها الحادة، تتفرع إلى ثلاثة فروع، بدت لوحة ساحرة، وفي رأس أحد أطرافها زهرة صغيرة ناعمة، تتفتح بلون أرجواني مذهل لا يشبه شيئاً من ألوان الصحراء، من أين جاءت؟ أي نسغ عظيم حمل الماء من جوف الصحراء وسيَّره في جسد الصبَّار ليتوج رأسه بزهرته الفريدة!!

في غبش الفجر كانت عيون «الكحيلة» ترمقه، شعر بجسده خفيفاً، وهتف دون وعي مخاطباً زهرة الصبار:

– يصبحك بالخير.

* * *

وصلوا إلى الأزرق وقد جعلهم ماء باير الذي تزودوا به أقدر على مواصلة المسير واحتمال الصعاب، كان الصيف يودع أيامه الأخيرة وبهم طمأنينة تدفعهم إلى التشكيك بما يجاهر به «الجزائري» كل حين في أنه سيتركهم هم وحلفاءهم الإنجليز ويذهب إلى الدروز، فيرفعوا معاً علم الثورة مُغيِّرين مسارها..

في هجعة الليل خرج «الجزائري» بصحبه عن الركب وعاود بقية الرجال سيرهم هادئين، فقد تعودوا انضمام المزيد إلى الجيش الذي لا يعرف له نظام، فما ضرّ لو انسلخ البعض على غير عادة!! هكذا روضوا أنفسهم على قبول الحدث، وتجاهل المخاوف الغامضة في دواخلهم، وأبدى «لورنس» ارتياحه، وأعلن «عودة» دهشته، وظل «عقاب» يقصي بحزنه بعيداً عن روحه بعزم المقتدر على الفرح.

عند شلال الأزرق الهادر وقفوا وكأنهم في حلم، في قلب الصحراء يتدفق الماء، و«عقاب» لا يملك أن يرى الماء أو يسمع خريره أو يشم عبقه دون أن يحضر طيف «مزنة»، ولدى الرجال رغبات دفعتهم للارتماء في حضن الشلال، وسرعان

ما أوقف القادة هذا العبث الوجداني منبهين أن عليهم الوصول إلى نقطة الحراسة عند الجسر دون أن يلفتوا الأنظار، وتبارى أولاد الزبن فى إظهار معرفتهم الدقيقة لتفاصيل المكان.

أناخ «مفلح» جمله وكذلك فعل الراكبون، وتأخرت الخيل والإبل، وسار عدد من الرجال على أقدامهم يحملون الديناميت.. تسللوا ببطء معتمدين على الصوت الهادر المنبعث من الشلال لتغطية تحركاتهم.. عندما أطلوا من فوق الجسر على الحامية الغافية صار إنجاز مهمتهم وشيكاً، إلا أن جنداً من الأتراك رفعوا رؤوسهم أعلى التل ولمحوا القوة المترجلة فسددوا بنادقهم في نفس اللحظة التي أسقط فيها الرجال أصابع الديناميت وفروا.

وهدر صوت القطار قادماً من بعيد، وكان على «لورنس» أن يُقدِّر بدقة الوقت المناسب ليضغط جهاز التفجير، لكن انكفاء الرجال عن هجومهم المضطرب على الحامية زاده توتراً، فضغط جهاز التفجير قبل وصول القطار، تطايرت الحجارة وارتمى «لورنس» في مكان قريب ودمه يلطخ ذراعه اليسرى في حين طار جسد «فهد الزبن» إلى حفرة قريبة، واختلط الفارون بمطاياهم وتزايد الهرج، شد «عقاب» فوق «الكحيلة» عكس اتجاه الهروب.

– لزوم نشيل المجاريح.

فرس الفتى التي دخلت أغبرة الانفجار، وكلمته، جعلت الشريف «علي» يتردد ثم يحسم أمره فيومىء إلى أقرب رجل منه «تركي الزبن»، ليلكز هذا ناقته فتتبع «الكحيلة» وتكر وراءها فرس الشريف.

تراجع الباقون بنوقهم وإبلهم والخيل.. وتمكن الشريف «علي» من التقاط «لورنس» وهو يتفقد ذراعه، والدماء تغمر ثيابه البدوية المعفرة، وواصل الأتراك إطلاق رصاصهم على من تقدموا ومن فروا، اقترب «عقاب» من أعلى التلة يستكشف المكان، فلمح جسد «فهد الزبن» يتحرك محاولاً التسلق، انحدر «بالكحيلة» متجاهلاً تطاير الرصاص حوله ثم شاداً الجريح من عاتقيه ليردفه فرسه

ويصعد التلة من جديد.

عاد جند الأتراك بعد أن لاحقوا الفارين لمسافة غير يسيرة وقد قنعوا برد الهجوم العشوائي وتساقط ستة من فرسان البدو صرعى.

ذُهل من أسكرتهم الانتصارات السابقة، عـز عليهم فشل لا مبرر له، عادت بهم الركائب إلى الأزرق منكسرين. وإذ لاحت القلعة القديمة، اندفع الرجال متساقطين عن ركـائبهم يتـمرغـون في عشب الواحـة الأخضـر، و«لورنس» الذي ربطت يده وشدت إلى صـدره، ارتمى فوق العـشب متـعباً، وفـجأة تجلت له خـيالات سـهول إنجلترا الفسيحة الزاهية، ثم تنبه إلى مكانه وزمانه، وفجع بالسؤال.. ماذا أتيت أفعل هناك؟ لما أغص وفي حلقي مرارة الخجل؟

عندمـا يسقط الليل فـوق القلعة سـتنهض أرواح كلاب الصـيد التي دربهـا بنو هلال ونفقت كلهـا في هذه البقعة لـسبب غامض في زمن بعيـد، ستنهض الأرواح وتتطلع في وجـوه الغازين، فـمن وجدت في قلبـه شعلة مـن شجاعـة تركتـه ومن أحست بخوفه اقتاتت به.

دخل الشريف القلعـة غير عابـيء بالأسطورة، وتوجس «عودة» وهو يطأ أرض القلعـة، أغمض «زعل» عـينيه بتـهكم واستـخفـاف يعكس انتظاراً أكيـداً للأرواح الموعودة، إلا أنهما لم يشعرا بأية أنفاس غريبة تلفح وجهيهما، فناما.

في الصبـاح عكف «حسن شاه» ورجـاله الهنود على ترميم القلعـة الخربة بطين المكان وحجارته، كما أبدوا جداً فى إصلاح الجامع القديم المجاور لها. فبدوا كأنهم فريق من العمال وليسوا محـاربين عادوا للتو من المعركة. أيقن «عقاب» وهو يرقب اختـلاف الحركـة في المكان الجديد، أن الصـحراء تقلب وجـهها ولا تمنحه طقـساً واحداً يعرفها تماماً من خلاله.

مـعسكر عـامل، شـيوخ وقـادة يفتـرشـون أرض القلعة يـتحـاورون، مدنيـون وعسكريون يتدربون، مزيد من الوفود، بدو وشـركس يحملون الأرز والبرغل تحية للمقـيمين والجـيش المقاتل، ثم هناك هذا الإنجليزي الغريب الأطوار الـذي يقضي

يومه متمطعاً في العراء نهاراً، مستلقياً في ركن دافيء داخل القلعة ليلاً، متأبطاً قلمه ودفتره، عيونه بعيدة كأنها ليست في المكان. يسمعونه يسأل بحماس: كم تبعُد «درعا»؟

ضاق «عقاب» بالمقام، يجلس إلى جوار برك الماء العذبة المنتشرة على مسافات متباعدة، فيغوص وجه «مزنة» في أعماقه ويضنيه الوجد، يمر ببساتين القصب والنخيل ويسمع خشخشة العيدان الصلبة القوية، فكأنما خلاخيل «مزنة» توقع موسيقاها العذبة في سمعه، يستحيل المكان جنة، يمد يده علَّها تلقى كفَّها الصغيرة وخصرها الهلال فيحصد الفراغ، ينكفأ الفتى العاشق على حزنه وشوقه.

يقول زعل:

- أشوفك تسوح بعيونك وكنك بعيد، تعشق الماي والرمل وحمَّ الشمس، أشوفك ما انت مثلنا، ساعات ودي أكون مثلك، تراني أضيق بشمسنا القاسية وأكره الرمل وما أصدق لمع السراب ، أحس حياتنا عطش بعطش ، أحلم ببيت بالمدينة ، له قفل وباب ، أضيق بالصحرا ، وعليها وجه الله غير أهج وما أطاها بقدم ، لكن يا عقاب يوم الشمس تتدور حمرا مثل قرص الملة .. ويلي ما أحلى ألوانها ، يوم تذوب بحضن الرمل ، أنسحر وأحس قليبي يذوب ، ويصير ودي أسجد ع رملها ، خوف الملامة.. أمسك دموعي .. آه يا ويلاه ... ما يندري ويش هالسحر بالصحرا .

كل من في المعسكر له عالمه ، عوالم كثيرة داهمت الواحة الصحراوية ، لملم الصيف بقايا حرارته وما تبقى من ثمر البلح ، وتراجع مفسحاً لرياح الشتاء لتحتل المكان والزمان .

الرؤوس كرات
في مدار العروش
وساحاتها اللاعبون
تتمسرح أهواؤهم فوق نطع
واتعـــظ
أيها الشاهد ، الأليف لصحراء هذا
الجنـــون

«أدونيس »

انخفضت الحرارة ليلاً ، بدا ذلك محتملاً ومبهجاً بعد جولات الشمس المرهقة، إلا أن الصقيع تمادى واشتد قسوة ، وصار الرجال الملتفون في فرواتهم يسمعون اصطكاك أسنانهم ويستشعرون ارتجافات ركبهم ، فيتكورون حول أنفسهم كالأجنة ، عل اللحم يدفئ العظم ، وبات توفر المؤونة في المعسكر عامل إغراء للآخرين ، فمع هبوب العواصف الباردة انضم الهاربون العرب من الجيش التركي إلى هذا الزحف المتوقف في الأزرق بتزايد مطر كما تكاثر تجار الأرمن والبدو ، وجاء فلاحو حوران يتزعمهم " طلال الحرديني " ، وكلما شك الشريف في إمكانية الاكتفاء بالمؤونة ، جاد بها الأهالي من كل جانب ، وضاق لورنس بهذه التظاهرة ملحاً على اختصار المتطوعين إلى أدنى حد ممكن ، لم يجد آذاناً صاغية خاصة أن اقتراحه هذا كفيل بإحداث ردود فعل لا مبرر لها .

تساقطت الثلوج وما كان هذا حدثاً عادياً ولكن الواحة الصحراوية حنت ، وتحولت إلى سهل أبيض يرقبه البدو ذاهلين ، يحاولون تذكر متى حدث مثل هذا الأمر ، فلا يجدون في ذاكرتهم له وجود ، رفع "عقاب" كفيه إلى السماء ، وإذ تغطت بندف الثلج الناصعة ، حدق بها ، واستشعر لسعها البارد اللذيذ في باطن كفه ، وراقب ذوبانها البطئ ، واستمتع بسرسوب الماء ينساح بين أصابعه ، وشقت صدره رغبة عنيفة بأن يغتسل بماء السماء الطهور الطاهر ، رفع حصيلته من ذوبان الثلج إلى وجهه ومسح ، فاختلط عذب ومالح ، رمقه "زعل" بعين العارف

– علامك ؟؟ تذكر الأهل ؟؟

الفتى لا يجيب ، يتطوع " زعل " بالنصائح:

– بعدك غضي يا عقاب ، مقتل الرجال قلوبها ، لا تخلي قلبك يرد خطاك ويوهن ساعدك .

"عقاب" غائب في النجوى .

كم أنت واهم يا أخي ، سند الرجال قلوبها ، وقود الرجولة عشق عظيم يتسامى عن الهنات ويعلو عن الصغائر ، كيف للعشق أن يرد خطاي ويوهن ساعدي ؟

وأنا ما خرجت إلى دربي إلا به !! لم تطلب الحبيبة كنزاً ، ولا بيض النوق ، ولا حليب العصافير ، لكنه الماء ، وها هو عشقي يشد أزري ويجعل خطوي ثابتاً قوياً ، وساعدي حاسماً قاطعاً ، أما الذين لا يعرفون العشق فهم من يرتدون ، أغفر لهم ما يقولون في العشق ، إنهم لا يعلمون .

انتظروا انحسار الشتاء في الأزرق ، كذلك في وادي موسى ، أما في العقبة فإن خطة يتم إعدادها ليبدأ التنفيذ مع أول بشائر الدفء ،، وإذ مل " لورنس " إقامته في " الأزرق " ارتحل إلى القادة في " العقبة "، فوصل مع وصول الأمير الصغير " زيد " شقيق " فيصل " .

وصل " زيد " رافعاً الراية المزدانة بالنجمة ، فتى في السابعة عشر من العمر يندفع مزهواً ، قائداً لألف وستمائة مقاتل ، جند جدد يعني المزيد من الحاجة إلى المؤونة ، والأمير الذي اعتمد على جسارة " لورنس " في السفر إلى العريش لجلب المؤونة ، فوجئ به يطلب حراسة خاصة وقد انتشرت أخبار جوائز الأتراك لكل من يأتي برأس بريطاني ، كان مبلغ عشرون ألف ليرة مغرياً ، لهذا أُحيط "لورنس" بخمسة عشر فارساً يتسامر معهم فتزداد معرفته بلهجاتهم ، وإذا ما استدعي لمرافقة " جعفر العسكري " و " علي بن الحسين " في جولاتهما ، اصطحب حرسه الخاص ممعناً في تدليل ذاته ، لم يبتعد القائد العام في جولاته إلى نقطة أبعد من وادي موسى ، حيث يعسكر " مولود مخلص " بجنده معذبين في صقيع الصحراء عذاباً يفوق الاحتمال البشري ، متعانقين إذا ما هبط المساء طلباً للدفء ، وكثيراً ما أطل الصباح ليزيح أحدهم صاحبه عن جسده ، ويكتشف مذهولاً ملتاعاً أنه سرق الدفء كله ، وعانق جثة حتى الفجر .

هي الحرب ، لا تعني فيها العذابات شيئاً ، تمر أشياء رخيصة لا يقف المحارب عندها ، وإن كانت الوقود الذي يؤجج أوار معركته ويزيد من لهيبها واشتعالها ، شتاء قارص موجع كأنه الطعنة النجلاء ، ولكن الحرب تململت تحت رداء السكون الطويل ونضت عنها ثوب الانتظار وواصلت استدعاء الرجال .

في خيمة " فيصل " تم إعداد خطة " الكماشة " ، وبدا الكابتن " جويس " قلقاً وهو يرى الأمير يمنح القيادة العسكرية في هذه المعركة لشقيقه الفتى ، وارتضى جعفر العسكري " الأمر مجبراً ، معتقداً أن للعرب أخطاءهم التي إن جرب إصلاحها لفسد الموقف كله .

" الكماشة " بروس ثلاثة ، الشريف " مستور " يقود الحويطات وعلى رأسهم الشيخ " حمد الجازي " ، الشريف " ناصر " و" نوري السعيد " برجاله النظاميين ، وعودة أبو تايه " بما تبقى من الحويطات وعشائر بني صخر ، يتحركون إلى محطة جرف الدراويش "، ثم " الطفيلة " ، هذا الرأس من الكماشة هو الأكبر والأهم ، ثم أخيراً الشريف " عبد المعين " يتحرك نحو " الشوبك" ، يلي ذلك خروج قوة صغيرة يقودها الشريف " عبد الله الغفر " إلى " غور المزرعة " عند شاطئ البحر الميت .

تحركت الأرتال الثلاث دون مؤونة ، والطقس مال إلى اعتدال ، ارتفع صوت الحداء ، وأطلق البدو الرصاص في الهواء حين مد الأشراف وشيوخ البادية أكفهم فوق بعضها متعاهدين:

– حفرة أو دفنه على من غبن وبان .

تحرك الجمع كالسيل وارتفع حدو " الصخور " :

شديت ثمناً مع ثنين عشراً يدهجن الليل
لصار الماشي حميله
وش الشاعر وده يقول عقله امن الشمت مذهول
ربي عفوك جزيله

من "الموجب" وحتى جبل " شيحان " الذي تستشرفه قمة " عراعر " يشعر الجميع بتردد حميم للأنفاس ، ويستعيدون في الذاكرة حكايا المسافرين عن الأرواح التي تسكن الوادي وتتبدى للمارين ، يصمتون لوهلة كأنهم يحدسون انضمام الأرواح إلى الجيش الزاحف .

يتبادل شيخ الحويطات " عودة " وشيخ الصخور " مفلح " عبارات الود ، ورجالهم يهبطون جنوب الطفيلة ، في حين يصعد النظاميون الهضاب الشرقية مثقلين بمدافعهم ورشاشاتهم .

العدوان اللذان كانا في الماضي ، تضاحكا جذلاً حين تمكنا من رؤية " الطفيلة " البهيجة في قلب الوادي ، تحيط بها الجبال والهضاب العالية شرقاً وشمالاً وجنوباً ، أما غربها فقد حصنته الطبيعة الحرشية والشجر المتشابك ، موطن النمر المتوحش .

لم يحل الموقع الحصين المانع بين أهالي " الطفيلة " والمخاوف ، فذاكرة الفلاحين مثقلة بأوجاع النهب البدوي ، وقد عاد العسس منهم بأخبار مخيفة عن أرتال من البدو المسلحين المتحدين القادمين لاحتلال " الطفيلة " ، ورغم العلاقات التي كانت تتحسن أو تسوء بمقدار بين شيخ الطفيلة وشيوخ البدو ، إلا أن الشيخ " محمد العوران " لم يجد مفراً من وضع يده في يد قائد الحامية التركية ، وقَرَّ رأيهما على الدفاع عن قريتهما الصغيرة ، فاندفع جند الحامية والمزارعون رجالاً ونساءً في عملية محمومة لتحصين المكان .

أحكمت النسوة رتاج الأبواب الخشبية من الداخل ، وخبأن خيرات الأرض في حفر ردمنها ، وامتشق الفتيان فؤوسهم ، وارتجف قائد الحامية وهو يفتح مخزن الذخيرة ويوزع البنادق على الرجال المؤهلين لحملها من جند أتراك ومزارعين عرب يمد البندقية إلى حاملها وفي نفسه شك حول الصدر الذي سيتلقى الرصاصة ، يطمأنه " العدوان ":

- هل الطفيلة كلهم معاك ، ما نجيب راسك واطية يا زكي الحلبي .

تذكر القائد اسمه ، تجلت له حلب الشهباء ، فهزه الحنين ، وابتلع ريقه وقد مرت أعواد المشانق في خاطره ، " زكي " الحلبي .. التركي ... كيف يمكن أن يصير تركياً ؟ وأين يذهب بدمه العربي ؟؟ يغص من جديد ويعود ضابطاً منضبطاً ، وهو يطرد هواجسه ويوزع الرجال من جند ومدنيين على مفارق

القرية وحولها وداخلها.

الوصول إلى "الطفيلة" ، يعني المرور بمحطة " جرف الدراويش " ، والجسر الحجري صيد مغر ، إذ يدرك " عودة " أنهم لو دمروه لصارت القرية طوع أيديهم. توزع البدو الصخور يهاجمون شمالاً ، والحويطات جنوباً ، قبل أن تشرق شمس ذاك النهار كانت مدفعية النظاميين في أعلى الهضبة الشرقية تغطي انحدار البدو نحو المحطة بقصف مركز ، ولم يعد بمقدور حامية المحطة التركية أن ترد لإنعدام الرؤية في غبش الفجر ، ولكن النهار يتقدم بإصرار ويكشف البدو الهابطين سفوح الجبال ، في تلك اللحظة توقفت المدفعية العربية .

فقد " نوري السعيد " أعصابه وهو يكتشف تعطل المدفع ، وصار البدو المتحمسين أهدافاً مكشوفة لرصاص الأتراك ، لكن الملازم " راسم سرادست " تصرف بأعصاب باردة ، راح يفك مسدسه الشخصي بمهارة فائقة ، بدا مدركاً ما عليه فعله ، وإن كان في الحقيقة يجرب خياراً محتملاً لإنقاذ الموقف ، نزع منتاش المدفع المعطل وثبت عوضاً عنه قطعة حديدية فصلها من مسدسه ، ثم وجه المدفع مجدداً نحو المحطة ضاحكاً :

- بنجرب .. شو خسرانين ؟؟

دوى صوت المدفع ، وصفق " نوري السعيد " وعاد الارتباك في المعسكر التركي، البدو الذين لم يشعروا باللحظات القليلة الفاصلة ، تمكنوا من الوصول إلى قلب المحطة ، وأمام كثرتهم ، رفعت الحامية الصغيرة علم الاستسلام ، كان منظر القطارين الرابضين على أرض المحطة العامرين بالمؤونة مغرياً ، تدافع البدو إلى المقطورات المربعة يفرغون حمولتها ، وتلفت " عودة " جزعاً ، وهو يرى "عقاب" يحمل جسداً بين ذراعيه ، كان ذلك " مفلح القمعان " شيخ الصخور، عدو الأمس ،حليف المعركة الذي أردته رصاصات الأتراك وهو يهبط مهاجماً على رأس رجاله ، انقبضت ملامح " عودة " ، وهز البعض رؤوسهم ، وهمس «زعل»:

- له الجنة ، قلبي سولفني من يوم شفت افرسه تنبش بأرضها ، المنحوسة .

شوح " عودة " بيده:

- هش .. موتة النشامي ما تتسمى نحس .

وَسَّدَ " عقاب " جسد الشـهيد صهوة فرسه ، وأحاط الصخور بشـيخهم وقد قَرَّ رأيهم أن لا يُتـرك لوحوش الفـلاة ، تباطأت الحـركة وهم يدفنون شـيخـهم ، وقلة عادوا لتفقد القطار حتى صاح " عودة " :

- لو الربع من القطار ، ترى حوش الغنايم طال ، لو تأخـرنا يخرب الطابق من أوله لتاليه .

افترش الرجال المقطورات، يقلبون البضـائع، ويتضاحكون وهم يرمون بأكياس معبأة باللحوم المجففة إلى النظاميين:

- هذا لحم خنزير يا الأجاويد ..

تصايح الجنود :

- خنزير والا قرود .. الجوع كافر .

أفلت القـادة زمام البدو ، وازداد قلق " نوري السـعيـد " الذي وصل مسـتطلعاً سبب تلكؤ الجمع ، وهو يقتاد مائتين من الأسرى:

- يا شيخ ، هذول رجالك ، مسؤوليتك ، دبرنا ، حركهم .

قفز " سالم الزويري " إلى جوار " عودة ":

- حلها عندي يا عمي .

- هات تا نشوف .

في لحظة اعتلى الزويري القطار باحـثاً عن مقطورة بعينها ، فـإذا ما وجدها راح ينقل صفائح معدنية صغيرة إلى الخـارج فيتسلمها " عقاب " وزعل " دون أن يسألا عمـا يفعل الرجل ، وإذا ما تبـقت صفيحـة واحدة ، فك " سالم " غطاءها فـفاحت رائحة دخـيلة يعرفـها جيـداً ، دلق السـائل على أرض المقطورة وتراجع إلى الوراء

مسرعاً وهو يقدح زناد قداحته ثم يرمي بها وسط السائل قافزاً من القطار ، شبت النيران فتدافع البدو فزعين ، قفزوا يحملون غنائمهم ، وضحك " نوري السعيد " وهم يعتلون ظهور مطاياهم ، أما " عودة " فقد باشر بإطلاق سراح أسير واحد ومنحه ناقة عفية ليذهب بالخبر إلى "الطفيلة" .

يعرف " عودة " أنه قد يُضيِّع بفعلته عامل المفاجأة ، لكنه يرى إمكانية كسب الأصدقاء خوفاً ، راح الركب يسير بطيئاً مانحاً الفترة الكافية للرسول ليذهب بالخبر وقد يعود بالجواب .

أناخوا إبلهم مساءً وأشعلوا النيران ، وراح "عودة" ينظر في الوجوه التي أنارها لهيب المشاعل ، راق باله ، ورق صوته وهو يتحدث:

– تعرفون ويش يصير يوم الجوع يطب أرض الذيابه ؟؟

غمغم الرجال، واسترسل " عودة " :

– الذيابة صبارة على الجوع وقلوبها حجر ، تلوب بكهوفها وتعض النواجذ ، والجوع عنيد ، يومن يوصل مداه ، وما يعود بين الجايع والموت اشعره ، تطلع الذيابه بالخلا ، تقف مقابله بعضها ، هزيلة ومعلولة ، تجوح وتعوي ، والذيابة يا السامعين تفهم رطن بعضها ، والصوت يفضح صاحبه ، الخنوع صوته خنيس لا يمد ، مرتج ومهدود ، يفضح ضعف صاحبه ، تعلم الذيابه مين أضعفها ، هذاك يكون عشاها بليلة الجوع ... والبشر في الحرابة ذيابة ، علي صوتك وخله يرعد ، توقف معك الذيابة ، لو تلجلجت واتداريت وخفت .. تراك ماكول .

يتفرس " نوري السعيد " في وجه " عودة " متسائلاً:

– تسلينا والا تخوفنا يا شيخ ؟؟؟

– لا هاظا ولا ذاك ، اسولف لك بهرج الصحرا لاجل نقتل الوقت .

تأمل " نوري " النار وهي تخبو في مجمرة الشيخ ، وتذكر دجلة وبغداد ، بغداد البعيدة ، كم تبدو قريبة الآن !! .

* * *

لم يستهن " ذياب العوران " بالجيش القادم ، وراح يرقب مشفقاً حماس الأهالي ، ويعجزه هدوء " الحلبي " ومسحة الحزن التي تعتريه ، كأنما في داخليهما شك يصير يقيناً ، أو يقين يعتريه الشك ، كلاهما تنتابه مشاعر غامضة ، يترددان في الإفصاح عنها ، ولكن لحظة وصول سفير " عودة " الأسير المطلق سراحه ، أسقط في ايديهما ، وأعلن " العوران " عن مخاوفه :

- دلني .. مين حارب عودة وكسب ؟؟ ما اقدر انحر رجالي في دور خاسر ، حنا نعرف هجمة البدو وغزوهم ، كل خير الطفيلة ما يكفاهم لو دخلوها غازيين .

يؤمن الحلبي على حديثه ، إلا أن العسكري فيه يقاوم :

- أنا ما باستسلم للبدو ، للجيش أيوه ، هي حرب ، ومثل ما ودوا مرسال ، بنودي مرسال .

خرج " عبد السلام " الابن البكر للعوران يعلن استعداد القرية للتسليم مقابل منحها الأمان في الرزق والعيال ، وانتظر الرجال .

لما أطلت خيل الثوار على مشارف القرية ، ساد السكون ، تأخر الجمع في حين تقدم " ناصر " و " عودة " ، والنساء اللواتي أحكمن إغلاق أبوابهن بالسقاطات ، تلصصن من وراء الشقوق ، في حين توارى الفتيان خلف الأشجار ، وآخرون في قصائل بيوتهم حين شاهدوا " العوران " يمضي باثنين من رجاله يستقبلون القادمين ، حين صار وجهاً لوجه مع " عودة " تريث في الاقتراب ، ، إلا أن " عودة " استشعر جرأة وأماناً ، فسأل بعفوية الصداقة التي جمعته بالرجل فيما مضى :

- عسى قهوتك الزينة زاهبة يا الشيخ ؟؟

ورد العوران " :

- حيا الله الضيوف .

فتحت النسوة أبوابهن ، وتراكض الرجال في الدروب المؤدية إلى المضافة ، حيث فاحت رائحة قهوة الفجر ، ودارت الفناجين ، وسمع الأهالي رجع ضحكات الجالسين .

قال " ناصر ":

- الأمان لحامية الترك ، يسلموا سلاحهم ويهجوا ، وعليها وجه الله ما نمسهم بسوء .

ورد " العوران " :

- الشريف قدر القول ، لكن هذا " زكي الحلبي " عسكري راسه يابسة ، ما يسلِّم غير للعسكر ، أصول الحرب اللي يعرفها ، اكرموه يا النشامي ، تراه مثلنا ، عربي .

عندما وصلت أرتال الجيش النظامي إلى القرية ، أرسل الشريف برسولين ومعهما الملازم " محمد علي العجلوني " يعرضون الشروط على الحامية المتمركزة في المباني الحصينة ، خرج رجال الحامية الأتراك رافعين أيديهم في حين سار «الحلبي» واثقاً هادئاً ، ومد كفه إلى القادة العرب مصافحاً .

كان لانضمام " الحلبي " إلى الثورة أثر حاد على الأهالي الذين أحبوا الرجل ، وأدركوا بعمق أنهم وقفوا يدافعون عن فضائله ، وأن الحمى تجتاح نفوسهم للانتماء إلى هوياتهم الحقيقة ، انطفأت نيران مخاوفهم وهم يرون غزاة البدو يعفون عن مغنم القرية المستسلمة ، عصراً. وقف الجمع من بدو وفلاحين وعسكر ، فوق المرتفعات تحيط بهم تلال خضر، يرقبون جنود الحامية الأتراك يسيرون في سهل " نجل" الغزير المياه ، سالكين الطريق إلى " الكرك ".

قال الفلاحون :

- كل ليلة قبل طلوع الفجر ، نسمع في الهوا سيوف المسلمين تجلجل ، هناك عند أطراف الوادي صارت معركة مؤتة ، وكنه أرواح الشهدا ساكنة المكان ، نسمعها ونحسها .

ويعلق بدوي :

- زين .. غد ، نسمع صوت ابل الترك الرايحة " الكرك " نسمع نحيبهم وهم يردون بلادهم .

ويصحح له آخر:

- عداك العيب يا الأخو .. رايحين " الكرك " و " الكرك " ما هي بلادهم ، هاي ديرتنا بعد .

يأتي دور " الكرك " ، كان من العسير أن يفكر المتحاربون في الحدود الفاصلة بين التقدم والتوقف ، و " عودة " الذي حنكته الغزوات أدرك أن هذه ليست النهاية.

- الجايات ما هي رخية ، ما يتركون " الطفيلة " لقمة هنية ، وغد نسمع ونرى.

جمع " عودة " رجاله صبيحة اليوم التالي عائداً إلى مضاربه ، وقد اكتظت " "الطفيلة" بالمحاربين مع وصول الشريف " زيد " ورجاله ، و " جعفر العسكري" " وحمد الجازي" ، تعانق طرفا الكماشة وتحولت " الطفيلة" إلى معسكر ضيق ، فضاقت صدور الرجال وتبعوا قائدهم إلى البرية .

فسحة الحظ التي أتاحها تحسن الأحوال الجوية ومكّنت الرجال من احتلال " الطفيلة" انقلبت ، وعاد المطر ينبىء بأن الشتاء ما زال يقيم. والبدو الذين خشوا توحش الصحراء، اعتلوا الصخور واحتموا بكهوف الجبال وما بقي منهم في "الطفيلة" إلا قلة من عرب الجازي .

اشتد البرد وغزر المطر ، ونفقت الأنعام التي أرهقها دورها في المعركة، وقلة الغذاء، وصقيع الصحراء ، في حين اقتاد " صبحي العمري " البغال إلى الكهوف محولاً إياها إلى إسطبلات مناسبة ، واقترح " زيد " تخفيف الرجال بإرسال قوة منهم إلى " وادي الحسا " يقيمون مخفراً أمامياً ، فخرج العجلوني يصحبه الشريف " مستور" وبعض الجيش لهذه المهمة ، وخفت حمولة " الطفيلة " .

في هدأة القرية ، يعدون طعاماً قليلاً يكورون العجين ، يفرشونه فوق الحجر المشتعل ثم يغطونه بالرمضاء والرماد ، فإذا ما فاح رغيف الخبز برائحته الزكية ، أخرجوه ونفضوه ، وراحوا يأكلون باسترخاء ، كأنما هي استراحة المحارب .

اختار " لورنس " بيتاً ريفياً مهجوراً من حجرتين ، احتمى بجدرانه من شدة البرد ، واختلى بأوراقه يخربش فوقها ما شاءت له خواطره ، تارة يسير على

الأشواك صعلوكاً حافياً ، وتارة يتحول إلى زعيم هاشمي له النهي والأمر ، فإذا ما طردت الشمس كتل الغيوم الماطرة ، وتسيدت الفضاء ، خرج إلى الفلاة عارياً إلا من بنطال قصير ، يقرص جسده حتى الوجع، ساحباً حشرة القمل اللئيمة وهي تتشبث بشعر إبطه ورأسه وتتجول فوق جسده .

لفتت الطقوس الأليمة انتباه " العمري، فاقترب متلطفاً.

- يا ترى من وين بيجي القمل ، والدنيا شتا !!!

يرد " لورنس " غاضباً بعربية ركيكة:

- من البل .. من الغنم .. من البدو ..

يضحك العمري:

- بكرة بتخلص الحرب وبترجع ع بلادك وبترتاح من القمل .

يقاطعهما أحد البدو الموكلين بحراسة " لورنس ":

- الله لا يسمع شورتك يا ولد الشام ... يرتاح من القمل !! يا ابن الناس ما يرتاح الأدمي من القمل غير بالموت ، طول الله عمر " أورنس " ، الله لا يحرمه قملاته .

ضحكوا بين مبتهج ومتوجع وخلي .

إذا الليل أضواني بسطت يـد الهـــوى
وأذللت دمعاً مـن خلائقـه الكبُـــر
«أبوفراس الحمداني»

ما من سبب يدعوني للعودة وترك الطفيلة ورائي. كنت جزءاً من جسدها العسكري، وآنست عشبها الأخضر وأشجارها المثمرة المسوَّرة في القصائل، وإن أرعبتني البيوت، الجدران العالية من الطوب المتلاصق بطين الأرض، والأسقف المشدودة بجذوع الأشجار وأعواد القصب المقوية بفتائل الصوف، سقف يحجب سقف الروح التي تتطلع إلى الفضاء وتعرج كما يحلو لها إلى السبع الطباق، لا أعرف سبباً يدفع المرء إلى حبس جسده ثم روحه في قفص كما تحبس الأنعام في الإسطبلات العطنة، رغم محابس البشر التي يسمونها البيوت، إلا أنني أحببت الطفيلة، وتسكعت والكحيلة في وديان ضانا، جمعت أحجارها اللامعات الملونات لتكون عقداً لمزنة.. أحببت الطفيلة.

ربما وصلتني الدلائل القصيرة عن موقعها وأهميتها في حربنا، تحدثوا عن الاستراتيجية وفن الحرب وأي البقع أعز وأهم موقعاً، لا يبدو لي أن هناك بقعة محايدة، عندما كنت في الوجه كانت هي حد الدنيا وشرفة الغد، وحلقت أرواحنا إلى العقبة معقد أحلامنا.. ثم تمنينا الطفيلة، صارت مربط خيلنا، لا أفهم الكثير عن استراتيجية المكان ولكني أمتلىء به وأملأه بي، هكذا أحب المكان ويحبني، وأعرف أن بعد الطفيلة الكرك ومعان، ثم نيمم شمالاً حتى نجتاز ثرى دمشق، تلك المدلاة في خاطرى كعقد الياسمين. ولأني لا أسلم جسدي أسيراً لبيت بجدران وأعمدة، ولا أحبس روحي في خُطى رجل عدا ذلك القابع في صدري قلباً شجاعاً يوجهني.. لهذا وذلك كان عسيراً عليّ أن أفهم لماذا نعود!!

يظن «زعل» أنه يعرف الكثير، ويحلو له التلذذ بسالفة «حصانين ع مربط»، أعرف قدر «عودة» وكل فارس مغوار ولكني لا أرى الرجال أصائلاً وكدشاً، تمور في صدري روحٌ أصيلة طليقة لا تعرف الخبب ولا اللجم ولا تروض، روحي.. روح أبي الصقر، تفهمني الكحيلة وهي تقودني بدعة منكسرة في طريق العودة إلى المضارب. تفهم انكساري وتعلم أن عودتي كانت لرؤية وجه الحبيبة ليس غير، أهفو إلى لقاء «مزنة» والمحاربون حولي

يشتاقـون لأنثى، وأشتاقهـا بصورة مغايرة، وإذ يحيطني زنـدها وأشتم حرير صدرها أتماهى معـها، الجسدان يصيران واحـداً ثم ينفكان بحكم الحياة وكل ما هو خارج عن الحياة، أما الأرواح فـإن يصيبها الملل من هذا العناق الأزلي الأبدي، لا فكاك.

في صقيـع البرد الصحراوي تتـجمد أطرافنا، إلا أننا نتغلب على البـرد ونشعل نيراننا الخـاصة فـوق فراش الشيح والقـيصـوم وتحت الفروة التي تدثرنا، التـحمنا، وليلة زرعت رحمها بالآتي، همستُ في أذنها:

- أنا راد الحرابة، ما استنى أمر «عودة».. أرد وحدي.

همست في حنو مستكين:

- أدري.

ثم ماج صوتها في سمعي وصدري كمزمار حزين:

واهناه للقمر ما يعرف الهوى　　　واهناه للقمر ما له عينا تـرى

واهناه للقمر والنجم العلـــي　　　ماله قلباً يحب ماله عينا ترى

ثم غرقنا في صمتنا، نحجب به نيران الوجد، فإذا ما مر نور شفيف بالديار فجراً حمَّلت الكحيلة بعض زادي وانطلقت، خُيل إليّ وأنا ابتـعد أن كفي «مزنة» مازالتا تشدان يدي حتى أصيح في توجع لذيذ.

وحدى عائد إلى المعسكر في الطفيلة، ولا يساورني شك بأن الفرسان سيتبعوني قريباً، كل خـيل المرابط ستصيـر حرة طليقة، ذاهب لحشـد لا أفهمه، لم أفـهمه في السـابق، سمـعت من اللهـجات مـا لم أحط به علمـاً، ولا حـتى أبي الحكيم أدرك تفسيره، ورأيت من الوجوه والألوان مـا حارت به عيناي، أخرج كل هؤلاء لمثل ما خرجت له! أم أن لكلٍ سيفه وغمده ومطعنه؟!

على مشـارف الطفَيلة أبطأت الكحـيلة في سيـرها وكأنما تدعونـي للتأمل، وإن مررت بالمكان سابقاً فكأني لم أعرفه قبل اليوم.

أضاءت الشـمس الفضـاء بحلتهـا الزاهية التي تقطر الحنان في قلـبي، ساورني

الأسى لأني لم أشعر بروح المكان من قبل.. مازجه فرح بالفرصة التي جاءتني لأعرفه، ربما كانت وحدتي هي خير لحظات الكشف والسعادة التي تتيح لي أن أرى صورة أشد نقاءً ووضوحاً.

رغبت في فهم المكان مكشوفاً بهياً تحت إشعاعات الضوء الذي غمرني.. نور على نور.. «مثل نوره كمشكاة فيها مصباح، المصباح في زجاجة، الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة، زيتونة لا شرقية ولا غربية، يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار.. نور على نور»*

للكون إيقاع شجي يبدأ من داخلي وينداح حولي في تلك الروابي الخضر، الكون يعرف كيف يصلي، وهذا الجمال الخصب المتوحش يقتات بي ويفجر في أعماقي ينابيع من الفرح المذهل، وكأني لم أخرج عن طوع جماعتي وامضي وحيداً!

مالي أنا بموازين الشيوخ وما اختاروا وما اتفقوا واما اختلفوا!!!

عندما تغرب الشمس وتنام عيونهم ستظل هذه اللحظة المفعمة بالوجد خالدة في ضمير الكون، وسأكون وحدي هنا وهذه الأرض، وحدي!! أم معه!!

– امتد عيص الأرض وراءه غامضاً، ولمح الرجل متخذاً وضع القرفصاء، تردد «عقاب» في الاقتراب، أما «الكحيلة» فتقدمت تقوده.

رجل وحيد يستند إلى عصاه وترتعش قدماه، تنخر القروح وجهه ويتساقط الصديد إلى صدره العاري، تقترب «الكحيلة» أكثر، ولا يملك «عقاب» ردها، يبصره بوضوح، والرجل لا ينظر نحوه، كأنه لا يراه، كأنه لم يسمع حوافر فرسه، يناجي بصوت مرتعش:

«إني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين»*

---

* القرآن الكريم – سورة النور الآية ٣٥.

* القرآن الكريم – سورة الأنبياء الآية ٨٣.

تسمر «عقاب» كأنه الحجر، ومضى الرجل في مناجاته.

«ألم أبك لمن عسر يومه! ألم تكتئب نفسي على المسكين! حينما ترجيت الخير جاء الشر، وانتظرت النور فجاء الدجى، أمعائي تغلي ولا تكف، تقدمتني أيام لمذلة، اسوددت لكن بلا شمس، قمت في الجماعة أصرخ، صرت أخاً للذئاب وصاحباً لرئال النعام، حرش جلدى عليّ وعظامي احترت من الحرارة فيّ، صار عودي للنوح ومزماري لصوت الباكين»*

من الجالس على أعتاب الطفيلة يناجي ربه.. أتراه؟

خفت من الخطل فأغمضت عيني، وبودي لو ركعت على قدمي المقرفص في البرية عند حد المدينة والصحراء منتظر منذ قرون!! واذ فتحتهما لم أعد أراه إنما غطى وجهي دمع غزير، ثم أشرق على يقين بأني الأثير عنده، وإلا ما لاح لي، ذاك «أيوب»*جد الطفيلة شريان ماجف، ودم ما انقطع.. يعودني..

دخلت البلدة هادئاً أنعم بتأملاتي، والكون الذي تعتريه حمى الحرب منساق لي يجعل كل ما حولي بهيجاً بديعاً، حركة الغيم في السماء، مرور النسمات الخفاف المعطرة بأريج السنط والعرعر وعبق الكلأ وهو يشق بطلعه الرقيق صوان الأرض مجاوراً الزنابق السوداء مستظلاً بالدفلى بأخضرها وأحمرها فوق مساحات شاسعة تحت أشعة الشمس اللعوب وهي تمازح الغيمات، أية سكينة تعتريني والكون في احتفاليته الهادئة الحانية تلك، أترقب بحذر منابت الخبيزة وقد أزهر زهرها الليلكي متفادياً أن تطأه قوائم فرسي، ولعلها فهمت فكانت خطواتها رشيقة مدللة كأنما تحجل فوق الرمال المعشوشبة، وعيون البدن، ماعز الجبل ترقبنا من بعيد، حذرة مكللة بالقرون القوية الجميلة.

أجفلتنا صيحات مفاجئة، واحتبست أنفاس الجمال المحيط بي، ورددت الوديان

* سفر أيوب - الإصحاح ٣٠.

* النبي أيوب.

ـسدى الصيحات العالية، ليس خوف ما بي ولكنه الخروج القسري من حالة التحليق ومتعته إلى صخر الواقع وقسوته، أعلم أن هذه صيحات «الفزعة» والصوت يجلجل:

- النشامى؟ وين راحوا النشامى؟ اليوم يومكم، وين راحوا قوامين اللايمه؟

لابد أن أمراً جللاً دعا الأمير للتصرف على هذا النحو البدوي خروجاً عن العرف العسكري النظامي الذي يحاول أن يُسَيِّر جنده على أنظمته، وعشرات الرجال يطلقون صيحات الفزعة من فوق جبل «البره» و«طويلة فاطمة»*

بدا وكأن الدنيا تموج، هناك أمر جلل.

رأيت الجند يندفعون إلى التلال في شرق جنوب البلد، وأذهلني خروج الرجال والنساء والأطفال من حدود القرية إلى أطرافها، فإذا ما اجتزت الجموع التي امتشقت العصي والقناوي والفؤوس، سمعت اسم «حامد فخري».

للأسماء التركية وقع مختلف، أتلمس الحدود الفاصلة بين أسمائهم وأسمائنا بتعاطف، ولكني لا أنساق بعيداً كما حدث مع «الجزائرى». أدرك بصورة واضحة تلك الفواصل الشفافة الخادعة بيننا، فواصل ما يسميه الضباط السوريون بالقومية، لعلي دون علمهم ومعارفهم، ولكن الحكيم علمني كيف أستشعر الدم في عروقي وكيف انثني باتجاه دمي في أي جسد يكون، وليس للإسم التركي ذاك النداء الذي يرجف دمي، أدرك أن أولئك القابعين في استانبول يتحكمون بالمصائر ما هم إلا أغراب، كما أرى الغربة ناطقة في الوجوه الشمعية البيضاء والعيون الزرق التي تحارب معنا، أو نحارب معها،!! أمر يستعصي على التحصيل، إلا أن شوقي يحارب مخلصاً.

في ساحة البلدة وقف الشيخ «ذياب العوران» يلهب حماس الأهالي مُحَذِّرا من الهروب والتخلي عن القرية، قال الرجل كلاماً مخيفاً عن «فخري حامد» - بطل «بوخارست»! - أين

* جبال محيطة بالطفيلة.

«بوخارست» هذه؟؟ وما موقعها من حرابتنا؟ أهذا سيف آخر وموضع آخر.. أم أن الدنيا شبكة متقاطعة؟؟ الحيرة قد تغتال اندفاعي ولكن الشوق يحارب دائماً.

اجتازت جحافل الأتراك وادي الحسا بقيادة هذا الذي سموه بطلاً رغم كونه عدواً، وتوزعنا في الطفيلة.. اندفع الشريف «مستور» وخيَّالته لإعاقة الجحافل المتقدمة.. ورأيت الضخم الضحوك «جعفر العسكري» يتجول مشجعاً الجند.. وكان «غريمنا» ابن عمنا.. دمنا.. «حمد الجازي» يقف مهيباً مثل «عودة» ويمتطي حصانه منه، ويصرخ بمثل صوته «طاب الموت»، شعور أكيد يخبرني أن صيحات الفزعة، ستصل إلى آذان «عودة» ولن يقاوم الخروج إلى الناموس، ووسط تلك الجحافل وكثرة القادة لم يكن لي من قائد، ولكني وبحكم ثوبي البدوي والجديلتين انثني إلى ركب الحويطات، عرب الجازي، ولا يعترضون.

استدعت الفزعة بعض عرب المجالي وفرسان الكرك الذين راحوا يعتذرون عن تخلف البقية، ولأن دوافعهم شابهت حال أهل الطفيلة في الماضي، فقد بدا «العوران» متفهماً:

- نقدر الحال ونفهمه.. غد يجوون كل نشامى الكرك.. غد قريب.

اجتزنا المنحدرات التي سحرتني قبل أن تبدأ المعركة، الآن وفي ذروة الحرب وضراوتها تصير صخوراً صماء مسننة، كم تشبه الأرض قلبي! هو الآن صخرة.

في النوخة* المسطحة صرنا مكشوفين تماماً في مواجهة الجيش الضاري المتقدم نحونا، كانت مهمتنا ضربه من اليسار، واختلط البدو بالمزارعين وتشظى دمي في كل جنب ومطرح، وقفت مرتبكاً متلعثماً وامرأة تجر حماراً تعبر بيننا وقد أردفت دابتها جثمان ولدها، كأنها لا ترانا، تغني بشجن باسل.

- يا امي هلمي ودعيني، لأنك لن تعودي تنظريني، ضميني إليك بعد موتي ومن شفق بدمعك بلليني.

---

* النوخة: الأرض المنبسطة في قلب الوادي.

رغبت في مس الشهيد المسجى فوق ظهر البهيم، ولم تمكني حمى القتال فذرفت دمعاً أوقن أنه بلل قلب الشهيد ورواه. اختلط الجمعان، ولدهشتي شاهدت الفلاحين يتجاسرون على الانهمار من فوق التلال كسيل لا يعرف ضابطاً.

الفتى السوري «صبحي العمري» قام بحركة فدائية مجازفاً قاطعاً بفريقه الدرب الأخضر مستحثاً أهالي القرية أن يتبعوه بحماس إلى قلب الهجوم، ولم يعد بمقدور جنودنا في الأعلى استخدام مدافعهم مباشرة إلى الأهداف بعد أن اختلطنا بالأتراك، إلا أن الانفجارات راحت تشق الفضاء مثيرة الفزع في قلوب الترك المنحبسين في الوادي يُقَدِّرون أن قواتنا ضعف ما يبدو لهم.

لماذا صهلت «الكحيلة» بكل هذا الاندفاع، ولماذا شعرت بجسدها ينتفض بجنون تحت فخذيّ!

عندما شبت على قائمتيها الخلفيتين، انثنى جذعي إلى الوراء، ورحت أحاول التماسك على ظهرها.. حبيبتي «الكحيلة» لن تلقي بي إلى أرض المعركة مجندلاً ولكن مساً يجعلها تستشيط.. وإذا ما عاندت جسدي كيما يتوازن مجدداً، فإني في لحظة، رأيت السماء التي كنت غافلاً عنها في حمى المعركة..

كان رداءها الأزرق ينشق بتؤدة مخيفة.. لعلي توازنت على ظهر «الكحيلة» ولكن عيني ظلتا معلقتين بهذا الشق العظيم وهو يتسع تاركاً الفضاء كله مسرحاً لسياط من نور تنهمر على الكون ثم يتبعها ضباب.. فإذا ما تبدد رويداً رويداً، رأيتهم قادمين.. عمالقة بأجساد فتية، يتساقطون في إثر سياط النور ويشعون بهاء يهزء بالضياء نفسه.. لأجسادهم العارية فورة الصبا وفتنة العافية واكتمال الحسن والجمال، تحف بهم أجنحة يصفق القلب لها كلما اصطفقت، يحملون زرد الحديد في أيديهم، وسيوفاً ترتعش وتتلامع حدودها المرهفات.. تقاطروا عشرات ثم المئات فألوف حتى اكتظ الفضاء ببهاءهم وأغشوا ناظري إذا ما اقتربوا وراحوا يجوسون بين الرجال، والرجال يفلون الحديد بالحديد والنار.. أدركنا أن الأمر صار

لنا عندما سمعنا أولى صيحات التسليم التركية.. آمان أوغلم..

أُصيب الرجل المخيف «حامد فخري» فوقع عن حصانه الذي أثاره رغاء الإبل وصيحات البدو والفلاحين، وسار الجمع في هرج يدفعون أمامهم الأسرى رافعين أيديهم، وكانت الراية التي تهزني تخفق بجنون فوق سارية من خشب يحملها أحد فرسان الجازى، وكانت الرؤية التى تجلت لي تمسك بمجامع قلبي، وتعالت صيحات الجند نزقاً وبهجة، وما تبقى من الترك يولون إلى فرار حتى قادتنا يبدون تسامحاً والأسرى يفرون ، فقد كنا أعجز من أن نتكفل بهذا العدد الضخم، وتركنا بعضهم يحملون جثة «بطل» بوخارست ليدفنوها عجالاً عند المنحدر.

فرغ الوادي من الأتراك وشفق الشمس يذوب في رمل الصحراء تاركاً سحره فوق التلال، وكأنما توقف الزمن، واستعدت نشوة المتعة التى أسرتنى وأنا في طريقي إلى الطفيلة، ثم ذروتها والرؤية تتمثل لي دون سواي.

لم تنم القرية تلك الليلة، الفلاحون يدبكون والبدو يهللون ويدحون. استشرى ذاك الهوس وانتقلت عدواه من البشر إلى الخيل والإبل، كل شيء في اضطراب غريب، كم هو عسير التعبير عن الفرح، وكم هو مذهل التعبير عن الزهو.

كان الإنجليزى «لورنس» يقف فوق تلة من الرشاشات الغنيمة، يضع يده في خاصرته ويلتقطون له الصور.

وأسمع ضحكة القائد «جعفر العسكري» يؤنب «صبحي العمري» على مجازفته ثم يمازحه قائلاً: مع ذلك أنت بطل هذه المعركة.

عدت إلى السير وحيداً، مكتفياً بجلال الهضاب والتلال من حولي، صارت أصوات الرجال في القرية تصلني مثل حدو بعيد أو كرجع الحنين، كانوا يعدون شهداءهم وتتوالى الأسماء مثل حبات مسبحة مباركة.

هو السـر سـرك، والأمهـات يلدنك فـي كل يـــوم ويشتـد عودك، تكبر في عنـفوان، وتعشق دائمـاً قبل الأوان، ثم تمـوت بعـــشـــقك كـل دورة للزمـــان.

«هاشم غرايبة»

يتشبث الصقيع بالصحراء انتظاراً لموسم المطر.

- بويه الحكيم، علمني؟.. تراني حويطي!!

تتطلع عيون الحكيم العميقة إلى الوجه الصبوح الحائر، ويفتر ثغره المطبق عن ابتسامة جذلي، ينحني نحو تراب الأرض، يقبض من رملها الخشن قبضة.

- حبات الرمل يا «عقاب» ما همّها اسمها، تعرف أرضها، وتكتفي، ما همك لو كنت حويطي أو شعالي أو مجالي، أو حتى من قوم الغوطة، أنت ولد الصقر يا "عقاب" هذا الذي لا يعرف له اسم، لكنه يعرف تخوم أرضه وسمائه ولا يروم إلا حريته فيهما.

- ويش يدريني كيف تكون الحرية يا بويه!!

هذه تحسها بضميرك، قد تكون حبيساً، القيد في معصميك وسلاسل الحديد في قدميك، مغلول عنقك، إلا أن روحك تزعق أريد أو لا أريد، وقد تكون طليقاً محيراً، إلا أن القيود التي لا تعرفها ولا تراها تحبس دمك، تخرج "لا" من قلبك حتى إذا ما دنت من شفتيك صارت "نعم" تبتغي مجداً فتبيع في دربه مجداً، خاسر أنت على الدوام ولا تدري.. وحده الضمير يعرف ملامح الحرية، لا الفعل ولا القيد ولا ما يتراءى للناس.. أتفهم يا "عقاب"؟؟

ليس بعد، تستولي المشاعر على لُب الفتى فيهيم في وحدة أشبه بالسفر، ونداء خفي لا يعرف له تفسيراً ولكنه يحاوم حوله، يفز من نومه كأنه فزع، وما به فزع، لكن عملاً استنهض همته، خيار وافق إرادته فجأة، ليس عليه أن يقيم حيث أقام الشيخ ويسير حيث يسير، بل كلما لاح مجد في أفق هرع إليه.

مازح الرجال "عقاب" متهمين إياه بالخبث إذ يفر من لسع برد الصحراء الموجع إلى دفء "الأغوار"*

---

* الأغوار: منطقة بمحاذاة البحر الميت - أكثر المناطق انخفاضاً فى العالم.

- لاحق أرض العبابيد، ترى الغور دفا وكيفيَّه.

لم يُفاجأ الشيخ بقرار "عقاب" في الانضمام إلى حملة الشريف "عبد الله الغفر" الذاهبة إلى ميناء غور المزرعة، فقد شاهده يلوب تائهاً بين الرجال ويعرف أن في جسده صهيلاً يدفعه للبحث عن معركة، وإن أراح قومه السيوف، يعرف في "عقاب" سيفاً يضنيه الغمد وروح صادية لا تستريح.

فارس والدنيا فرس، صهلت "الكحيلة" و"عقاب" يمتطيها فجراً. فإذا ما سارا أمتاراً قليلة خارج الديار، رأى "عقاب" الحكيم سائراً متكئاً على عصاه، فارداً جسده على قدر ما تمكنه روحه لا سنين عمره الطويل، راح زواله يتقدم خطوات الفتى، وكلما غذت "الكحيلة" خطاها فإن الرجل الراجل ظل يتقدمها، اختلط الأمر على "عقاب" فكما لو أن ما يراه ليس أباه الحكيم ولكن سراباً على الطريق.. ظل السراب أمامه حتى لاحت له جموع بدو بئر السبع، في لحظة التقائه بهم، ذاب بينهم وتماهى معهم، وناخت الدنيا للروح الجموح.

تلفت بغتة فما وجد الحكيم خلفه ولا قدامه، كأنما كان وهماً، كان على بدو بئر السبع أن يتسللوا ليلاً إلى ميناء غور المزرعة يقودهم الشريف "الغفر" ليدمروا الزوارق التركية الرابضة فيه والتي تقوم بمهمة نقل المؤونة للأتراك في أريحا.

التمع البرق عند أعلى جبال مؤاب وهم يتدحرجون ليلا إلى الوادي السحيق، واتقدت قلوب الرجال، قال "عقاب":

- البرق بسمة الملايكة.

وصمتوا انتظاراً، ثم شق الرعد آذانهم وصدورهم بذعر حقيقي، همس بدوي صغير:

- قامت طوشة الملايكة والشياطين بالسما.

والذين أرادوا تخفيف مخاوف الجيش المتقدم ليلاً وسط ظروف مناخية صعبة، تمتموا:

- ما شيطان غير ابن آدم.

أعـقب ذلك ضحك خـفـيف، ثم أخذ فـتى حلو الصـوت يردد مـرنحاً صـوته وجسده:

- تسـتور يا ابا الحـسن والحـسين، صليل سـيفك ووقع حـوار فـرسك، عليك السلام، طارد الكفر، هازم الكافرين.. حَيَّاك.. تستور.. تستور.

كلما انحدر الركب مالت الأجواء إلى الاعتدال وكأنها استجابة ربانية لنداءات الفتى. وعند أسفل المنحـدر عاود الحكيم الظهور طيفاً مـستقيمـاً يسعى على قدمين وعكاز ويتقدم الجيش بمراحل، ابتهج "عـقاب" ظاناً أنها رؤياه وحده، لولا أن صاح بدوي:

- خـاف الله هذا الحكيـم السـاكن في طور مـشـهـاق بالجـوف.. ويش جـابه بالخلا؟؟

رغم الظلام كـان بإمكانهم رؤيتـه كـأنما نور ذاتي ينبـعث مـن الجـسـد الذي يتـقدمـهم، وحده عـادل مخـاوفهم من حلكة الجـبال والوهاد. فـإذا ما تبين الخـيط الأسود من الأبيض في غبش الفجر الغوراني الدفيء، اطمأن الرجال وهم يحددون موقعهم متأكدين أن مخاوف الليـلة السابقة لم تضلهم عن سبيلهم، فها هم بمحاذاة السـاحل يحف بهم رجال عـشيـرة الترابين، وهـا هو طائر الوادي اللامع يلوح في الأفق مرسلاً ألحـانه العذبة مستمـتعاً بدفء المكان المناقض لكل الطبيـعة المحيطة به والذي تعـتليه جـبال شـاهقة مـجللة بالثلوج، طائر الذعره الـذي أفزعه وجـودهمَ، اندفع بحركة ذعر حقيقية أسراباً باحثة عن ملجأ، هتف بدوي:

- ودُه يفضحنا نعين ها الوالدين.

يرد آخر:

- لا تسب الطير، يقطعك الخير، وبَحَّـر زين، الترك كلهم غاطين بالنوم ولا عند بالهم.

ويهتف ثالث منبهاً:

- يا حيرة البال، ويش يسوي الحكيم هناك! كيف سبقنا المبروك؟؟

بدت القوارب الراسية عند الشاطئ أجساداً صماء في لوحة ميتة، لولا حركة ناعمة تحدث في قلب الماء، فتهز القوارب بلطف وتؤرجحها في دعة.

راقب "عقاب" البحيرة المقدسة، وكان لوهلة يرى الحكيم عن بعد ولكنه اختفى فأوقع اليأس في قلب الفتى، تلفت دون جدوى ثم تنبه إلى كف ثقيلة فوق كتفه، استدار ليرى الحكيم وراءه.. راعه الوجه الحبيب. قال الحكيم:

- في النهر القادم من الشمال، تعمد المسيح، ومازالت خطايا البشر ترتع في بحيرة الموت.

الفجر وقداسة المكان وعمق الصوت أرجفت قلب الفتى.

قال الحكيم كلمته الأخيرة:

- هنا على مرمى النظر، على حدِّ القلب وفي وهج الخاطر، قبل بحر الملح هذا كانت بحيرة من الفردوس تسقي العطاشى، ماؤها عذب مقطر، تنطوي على سر الحياة وتملك طلاسمها وتفتح بجود كنوز عطاياها، والناس يحجون إليها من كل فج عميق، يحملون وزر أيامهم وثقال خطاياهم وحمولة الحزن الذي ناؤوا به دهراً، يقتربون من البحيرة التي سقطت من الفردوس رحمة للعالمين، وإذ يملؤون أكفهم ويرتشفون ماءها الزلال تتوهج الدنيا وتتساقط أحمالهم وخطاياهم وأوجاعهم ويردون شباباً غضاً سعيداً، يحلمون باجتراح المعجزات، وتتجدد الحياة كل يوم على شاطئ الروح هذا، إلى أن كانت الخطيئة، عند حدود الماء لعن الإنسان أخيه الإنسان وتجرع البشر كؤوس الخيانة وسفك دم طاهر، فتطلع الإله غاضباً، رفع بحيرته إلى السماء الأولى واستبدلها ببحر أجاج ميت كل ما فيه، وترى عيون الخطاة العصاة معلقة عند حد السماء الأولى، حيث يصعد الصالحون بعد موتهم يمرون ببحيرة الفردوس فيعودون شباباً ويعرجون إلى السموات العلى بكامل بهائهم وألقهم، وقد ناداني الحنين.

قال الحكيم كلمته الأخيرة، ومضى، تبخر مثل عمود من سديم واختفى عن العيون.

يهتز عقاب لهول اللحظة، ثم ينتبه إلى بدء المهمة فينطلق باتجاه الرجال، وتلتمع الأرض المحيطة بالبحيرة كصفائح الفضة إذ يجف ملح الأصدم * حول الماء، ويُحَوِّل الأرض إلى صفحة من زجاج يتكسر تحت أقدام الرجال المتسللين باتجاه القوارب، فلا يوقظ وقع خطاهم ولا هشيش الملح المتكسر النائمين من عسكر الترك.

كانت مهمة سهلة، شَرَّخوا بخناجرهم أجساد المراكب الراسية المحملة، وبقبق الماء متسلسلاً إلى جوفها، تنبه الأتراك فإذا ببدو بئر السبع يحيطون بهم، وما كانت بالجند طاقة على تحريك أيديهم لطرد أسراب البعوض التي تحوم وتزن ثم تتخذ من أجسادهم طعاماً، فما أبدوا مقاومة، وسرعان ما استسلموا للحملة المفاجئة.

عاد رجال الحملة مثقلين بالعتاد والأسرى، افتقدوا الحكيم الذي تقدمهم طويلاً لكنهم لم يسألوا. ثقلت الخطوات صاعدة المرتفعات التي كان هبوطها مشوباً بالمخاوف ليلاً.. نهاراً. ودون توجس أو خوف توقفوا، وتساقطوا تباعاً عاجزين عن السير.. وهتف بدوي أدرك ما يحدث:

- المراريا..

غزت الملاريا الأجساد الجائعة الضعيفة تاركة صفرة في الوجوه ووهناً في الأجساد، حاول الشريف "الغفر" مقاومتها، حاثاً رجاله على الإسراع حيث يتلقون العلاج، فتقاعست أجيادهم، ورأى الجمع الفتى "عقاب" يلقي برأسه إلى كتف الفرس وجسده يرتعش تحت تأثير الحمى، وكلما ارتفعوا ذراعاً عن أرض الغور عوت الريح وصفَّرت وازدادت برودة، وتقلب المرضى بين حرارة الحمى وهزة البرد وازدادوا وهنا.

* ملح الأصدم: ملح يُستخرج من البحر الميت.

لاحت لهم قافلة متمهلة، امتطى رجالها إبلهم وظهورهم للخلف إتقاء دفع الريح والصقيع في صدورهم ووجوهم، عرفوا بهم رجالاً من بئر السبع يعملون أدلاء للقادمين من دمشق، يرافقهم إنجليزي متوتر، متبرم بما يلقون من صعاب.

هرع رجال القافلة لنجدة المرضى يسقونهم حليب النوق، والإنجليزي "إليك كركبرايد" تأمل الأمر منزعجاً وقال بلغته التي فهمها رجالات دمشق القادمون معه:

– شرف بريطانيا العظمى لا يسمح لي ولا يبرر ركوبي هذه المخاطر:

تجاهل الجميع العبارة، و"الغفر" يتحامل على جسده للسلام على القادمين. دقق "كركبرايد" في وجه "الغفر" قائد المجموعة، جيداً، وقال:

– الملاريا..!! أليس كذلك؟؟

هز القائد رأسه إيجاباً، فسحب الإنجليزي خرجاً صغيراً من آخر أكبر معلق على ظهر الدابة، وهمس:

– لديّ الدواء.

وعاين جزعاً جموع المتساقطين من المحاربين، وواصل همسه:

– لك وحدك فقط.

توجهت الإبل بمرضاها إلى مضارب قبيلة النعيمات الأقرب في المنطقة، وتجرع "الغفر" دواء الإنجليزي المر، واختار البعض الصبر لحين وصول ركوبه إلى دياره، وغذت "الكحيلة" الخطا بالفتي المرتجف على ظهرها، تعرف دربها الطويل. و"عقاب" تحت رحمة الحمى، يلمح صقوراً تحلق على ارتفاعات منخفضة، ترف حوله بأجنحتها القوية فتحدث ريحاً دافئاً يحف به رغم الصقيع الذي جثم على قلب الصحراء.

وصلت "الكحيلة" بفارسها ليلاً، وعند مشارف الجفر، وقفت "مزنة" تائهة كأنها تنتظر غيباً، وإذ لمحت "الكحيلة" تقترب أدركت أن قلبها لا يخونها أبداً.

أشاحت "مزنة" بناظريها شفقة عندما ضغط "دايود" كاويته الحديدية على رأس الفتى واشتمت رائحة شعره كالشواء، ثم بكت إذ خرجت « آه» ضعيفة واهنة من

شفتيه لحظة كوى داود كلتي يديه بين الخنصر والبنصر.

أعدت "مزنة" لحم الماعز وأعقبته بمخلوطة مثلوثة.. أوراق الكينا المريرة، وقليل من ملح البارود الأبيض ونبتة الكرية، واحتضنت المريض إلى حجرها تلقمه بقدر ما تستطيع وتصب فيه من دوائها ما يحتمل، ثم تدهنه وتمسح رجليه ورأسه بالطيب.

في المساء الذي أبّل فيه "عقاب" من مرضه، غمره عرق الحمى وهتف :

- تركتني يا به!!!

ورأى سحاباً كثيراً وعرشاً عظيماً أبيض، وكانت سماء جديدة لأن السماء الأولى والأرض الأولى مضتا.. وشاهد في كهف عتيق سريراً مذهباً مرصعاً بالجواهر يفوح مسكاً وعنبراً ويرعاه "موسى»* و"هارون" ممدد فوق حريره المفروش بالزهر والعطر وحشيش الأرض.

هارون المسجي دهراً فتح عينيه ونظر وجه "عقاب"، فإذا بوجه النبي يحمل ملامح الحكيم شاباً ألقاً، تبسم وما ولت هيبته.. ثم استوى وقام.. كأنه من السحاب جاء عموداً من نار، توهج سناه حتى عشيت عينا "عقاب" ثم تراجع الضوء مشفقاً.

أدرك "عقاب" وهو يتوسد فخذ "مزنة" الطري أنه عاجز عن الوقوف تحية لأبيه الحكيم ولكنه مد كفيه فإذا بالسموات قد انفتحت، "فرأى الروح نازلاً مثل حمامة وآتياً عليه»* وفي طاسة من مرجان اغترف ماءً طهوراً، جارياً، وآراق قطراته الصافية فوق الرأس المحموم فابترد، وكان صوت من السموات صارخاً في البرية:

"أنتم ملح الأرض، ولكن إن فسد الملح فبماذا يملَّح؟ لا يصلح بعد لشئ إلا لأن يطرح خارجاً ويداس من الناس، أنتم نور العالم، لا يمكن أن تخفي مدينة موضوعة على جبل، ولا يوقدون سراجاً ويضعونه تحت المكيال، بل على المنارة فيضيء

---

* النبيان موسى وهارون.

* إنجيل متى ٣ و٤.

لجميع الذين في البيت، فليضيء نوركم هكذا قدام الناس لكي يروا أعمالكم الحسنة ويمجدوا أباكم الذي في السموات"*

لحظة خلع الحكيم تاجه المرصع بقلوب العشاق عن رأسه ثبته فوق رأس "عقاب". أضاء التاج بضياء غريب عم الأصقاع وغمر بها نوره وجه الأرض.

امضى"عقاب" ثلاثين يوماً متوعكاً في أحضان محبوبته، ثم في صبيحة يوم أشرقت فيه شمس الشتاء لطيفة رائقة، فتح عينيه ونظرها، قَبَّلَ أناملها فغنت:

- بيَّ ولا بيك ريت الوجع يا زين.

فضاحكها عابثاً بخصلات شعرها المتهدلة فوق وجهه:

- لا بيه ولا بيك.
- خلص تعافيتْ ومفارق أحضاني!!
- وين أفارق، والديرة كلها أحضانك.

---

* إنجيل متى ٣ و٤.

الخيول المسرجة!
صهلت، لكن هل الفرسان فرسان كما كانوا.. غداً
والمهاميز التي تحملها الأقدام غاصت في القلوب.
وسيوف ثلمت
فقد استأجرها النخاس.. تحمي هودجه!

"أمل دنقل"

أكد بدويان أنهـما ناقـة "لورنس" تخوض في الطين وتخـترق حجب الضـباب متقدمة بصاحبها في اتجاه الطفيلة، حدث ذلك بعد أن كفت السماء عن رمي الوهاد والوديان بندف الثلج، والإنجليزي الذي واجـه برد وصقيع الصحـراء وجاء بجرابه مـحمـلاً ذهباً فـأحدث وصـوله بِشراً وحـبوراً لدى الـرجال المنقطعين، لم يبـد هو مسروراً، إذ جلس في مضافة "العوران" مـضطرباً والأمير "زيد" يتفقد الذهب الذي يلتمع بين يديه مـصطاداً أفئدة الرجال قـبل عيونهم، مثيـراً غيظ "لورنس" وهو يرى الذهب يتـقلب في مجلس يحـضره العـامة بدواً وفـلاحين، ولعل الأميـر الصغـير «زيدا»، ساوره الندم على هذا العرض المغري عندما انبرى شاعر يصيح بانفعال:

– سيف الذهب ع الكل ماضي   مثل القمر بالليل يا ضي

تزاحم البدو على مـشارف الطفيلة، كُلٌّ يطلب ما تجـود به أيدي صاحب الأمر، وقد أحدثت هذه الثروة لأولئك ردود فعل أليمة.

قال "عودة":

– يا حيف.. ما هو أوان الغنيمة بعد، ويش بلادهم العربان!!

ظن "لورنس" أن ما يصرف على أبناء الطفيلة والمتطوعين ليس في محله، وبينما يشتـد الخلاف ويحـتدم في المجـالس، فإن "عـقاب" راح ينتظر بأسـى نبيل أن يعـبر الرجال نفق مطامعهم.

توقف الثلج تمامـاً و"زيد" يضيق بتـدخلات "لورنس"، و"ناصـر" طريح فـراشه يعاني المرض، و"كـير برايد" لا يرى مـبرراً للاستـعانة بالبدو، والإنجـليز يقتـرحون انضمام القوة النظامية إلى الجـيش البريطاني في أريحا والعرب يرفضون. "لورنس" الذي أسقمه الجلد الذي يرتديه فوق جلده، يذهب إلى "اللنبي" في بئر السبع مقدماً استقالته، فيرفضها ذاك ويعيده مترجماً "لداوني" الذي يتقدمه في رتبته العسكرية.

صفـاء يعكره اصطراع الرغبات، وهدوء مـشوب بالخوف من المجهـول القادم. يقول "عودة":

– ما يندري ويش يصير، الحرابة مثل حـية الشتا، ما يندري أوان تمد راسها، ولو

عَنَّت براس التركي ما يتركنا للصيف، ترى الطفيلة مربط خيل.

مطلع شباط من عام ١٩١٨ والأرض بقايا تجاويف وبرك موحلة، جفت المرتفعات وبانت أثلام حادة في تضاريسها كما لو أنها ضربات سيف سلط من السماء، وتواترت الأخبار عن استعدادات جديدة للأتراك، حملة للانتقام ينتظرها الرجال الذين يعرفون أن للنصر ثمناً.

قُرب الطفيلة من الكرك وسكة حديد عمان، جعلا أمر السيطرة عليها خطوة عسكرية مهمة لإحراز النصر النهائي في المعركة، ما كان بمقدور الأتراك التخلي عن هذه المواقع بمثل السهولة التي أضاعوها فيها، لهذا اندفعت جحافل آلاف من الأتراك الألمان والنمساويين في خطة رسمها القائد الألماني "أفون" السادس إلى الطفيلة، يقودهم عسكري ألماني قدير هو "ماير" ويرافقهم "محمد جمال باشا" الذي سَمّى حملته قوة التأديب وتقدم وهو مدرك بعد التجربة أن الخطر قد يداهمه من مأمنه، مستغنياً عن العناصر العربية في قواته، بطيئاً حذراً مسلحاً كأفضل ما يكون. اجتاز بجنده الجبال الوعرة، يمشون في السرى ويتسللون نهاراً، ويحصنون أطراف حملتهم بحراسات غير اعتيادية.

تهاونت الطفيلة هازئة، فما زال طعم النصر الذي تحقق يملؤها زهواً، لم تقلقها أصوات النشيد تتعالى في الوادي:

جنكر خانك يراغي	انلي شانلي صانلا نرى
آيت خانك بايراغي	حربده بويله اكلا تسرى

كرر البدو الكلمات الغريبة ساخرين، كما رددت حجارة الوديان الصدى، وعرف فيها العسكريون القدامى ومن فروا من صفوف الأتراك نشيد القومية الطورانية.. "تموجت أعلام جنكيز خان في المجد والشرف وأرشدتنا آياته إلى نهج الطريق المجيد في الحرب".

بدا الأتراك عازمين على النصر، ورغم سخريات البدو من الصيحات العجمية بحدائهم الساخر، إلا أن العسكريين تخوفوا، لم يتوقف العبث إلا ليلاً، وابتلع

الصمت الأصوات فهجع كل شئ في المعسكر العربي بسكينة مخيفة. تمركز النظاميون في التلال المشرفة على جرف الدراويش، واستلقى البدو في العراء حتى لاح التماع حاد في رقعة السماء الحالكة السواد.. توهمه البعض برقاً. وإذ تواصل لمعانه متسعاً ماسحاً صدور الجبال وبطون الوديان بضوء ساطع، فإن البدو هبوا فزعين، وصاحوا وهم ينظرون ذاهلين إلى شمس الليل التي تخرج من الأسفل إلى الأعلى، من معسكر الأعداء إلى السماء ثم تصب ضوءها فوق رؤوسهم، تصايحوا:

– انهزموا.. جاتكم البلية.

تدافعوا، فقفز "صبحي العمري" بينهم مُحاولاً السيطرة على الفزع وضاع صوته وهو يردد:

– لا تخافوا... هذا البرجكتور.. ضو صناعي.. لا تخافوا.

وصاح الشيخ:

– علامكم.. بعران وهاجه. ياسواد الوجه.

صار الضوء الذي كشف تفاصيل المحاربين بعد لحظات ملهاة، إذ تسكع بينهم في كل زاوية، ولما لم يرم بنار ولا بارود، ضحك البدو من مخاوفهم واتهموا بعضهم بالجبن حتى صاح الشيوخ كلٌ منادياً رجاله:

– استعدوا.

وقع الاشتباك الأول غرب محطة الحسا بين البدو وخيالة الاستطلاع الألمان، ورغم أن البدو والفلاحين والعشائر تلاحقوا من كل جانب، فركب فرسان الجازي خيلهم وإبلهم فوق دثار اللباد دون ركّابات مكتفين بالحبال، فإن الموازين مالت لصالح الترك، لم تكن مسافة رمي الرشاش القديم كافية لتصل جحافل الأعداء الذين حافظوا على أماكنهم مسلطين نار مدفعيتهم الحديثة إلى قلب الدفاع العربي.

أعد "صبحي العمري" رجاله للأسر دون سلاحهم، فأوعز اليهم بدفن رشاشتهم، طمروها وأهالوا فوقها التراب والحجارة معتمدين على إحداث حركة

عشوائية كي يخفوا حقيقة ما يفعلون من كشف نور البرجكتور وهو يمشط المكان، وتساقط الشهداء كنسور عرضت لهم بندقية صياد ماهر، وفي الصباح تقدم الأتراك جحفلاً يطلق نيران مدفعيته ويجأر بنشيده الوحشي:

انتقامي اله مزيـــك ترككلك بزه ناقلــــه

صوصتره لم بايقـــو

"لا يحق لنا أن نُسمَّى أتراكاً، إذا لم نـنتقـم من أعـدائنا، فليـسكت البـوم عن نعيقه".

صباحٌ شديدُ الوطأة، اندفع فيه الأتراك وحلفاؤهم في حركة واسعة مثل موجة بحر لا تحسب للريح حساباً، وأحدث الاندفاع الهائل الضخم المخطط ذعراً في الصفوف، وانهمرت رصاصات الترك على مؤخرات الجياد والنوق التي جعرت وصهلت ثم ارتمت مسقطة راكبيها تحت ثقلها. وما كان بالإمكان التفكير بدفن الشهداء أو نقل الجرحى عندما اختلط الجمعان، وراح "زيد" يماطل في صمود انتحاري مانحاً الفرصة لأهالي الطفيلة لإخلاء بلدتهم من النساء والأطفال والأرمن. وما انسحب من موقعه إلا بعد أن جاءته الأخبار في أن الحارات خلت إلا من صفير الهواء، عندها أصدر الأمر بالانسحاب وارتد بجيشه نظاميين ومتطوعين إلى الرشادية، فدخل الأتراك الطفيلة ناهبين كل ما تبقى في بيوتها.

عاد الجيش بقليل من الجرحى وترك الباقين أسرى، ومرارة الهزيمة جعلت الرجال يسيرون مطأطئين. ورغم أن البدو كانوا يتصنعون الجلد، فإن النظاميين أظهروا حسرتهم بوضوح، ولم يرتض "زيد" بمواساة بدوي راح يغني على مقربة من خيمته في الرشادية:

– وين الملوك اللي براس حديد الكل بانيله علالي وصيوان

قال "زيد" بمرارة:

– هاذي ملامة؟؟

وراح البدو يتخلصون من اكتئاب الهزيمة على طريقتهم، واحتض أحدهم جسد

أخيه الجريح وهويلفظ أنفاسه الأخيرة، وأوصاه:

- إذا جاك أنكر ونكير، لا تقر لهم بقمح ولا شعير.

أضحكت الوصية جندياً سورياً رغم حزنه:

- يخرب بيتك، شو قمح وشعير!! ولك شهَّده وترحَّم عليه.

راح البدو يزرعون الرشادية هرجاً، يتجولون بعشوائية بين الخيام ينبهون العسكر إلى صوت الهامة يردده عصف الهواء في ظلمة الليل.

- وكدوا زين، ما تسمعونهم يجوحون؟.. اسقوني.. اسقوني.

يسمع "عقاب" النداءات بوضوح فيجف ريقه ويتشقق حلقه رهبة ولا يتمكن من الحديث.

لم تنفرج أسارير النظاميين إلا بوصول خبر اجتياز ستمائة متطوع من حوران إليهم بقيادة "علي خلقي الشراري". عشية وصول هؤلاء، ودون مبرر واضح، حدثت المعجزة، انسحب الأتراك من الطفيلة دون معركة.

قال "زعل":

- هذي خدعة.

رد "عودة":

- ما هي خدعة، ترى الحرابة ما هي على قدر ما تشوفه عيونك لابد شي صار في مكان بعيد طيَّرهم من أرضنا، وأصدقك القول قلبي ما ابتهج برحيلهم، ما هو ناموس ولا كيفية طلعتهم بدون سيوفنا.

عاد رجال سرية الرشاشات إلى حيث دفنوا عتادهم، جمعوا أشلاء قتلاهم من بطون الوديان ممزقة بأنياب وحوش الفلا، وحفروا باكيين فاستخرجوا السلاح ودفنوا الرجال رافعين فوقهم تلاً من الحجارة سموها رجم الشاويش ثم تقدموا مصطحبين مائة حمار تحمل الماء والعتاد للاستيلاء على محطة عنيزة.

تقدموا بحذر يمرون من "بصبوصة" موقع الدفاع المحصن دون أن يلفتوا الأنظار ولكنهم ما أن صاروا خلف الهضبة المقصودة حتى نهق حمار واستجاب له إخوانه

بالنهيق، وضاعت فرصة مفاجأة العدو الذي أطلق أبواق التحذير ورددت الوديان صدى الأبواق والنهيق وضحكات الرجال. لم يعكر فشل المهمة صفو أمزجتهم التي طابت بالعودة إلى الطفيلة، وراح بعضهم يتحدث عن اعتقاد يصل حد اليقين بأن الله يحارب معهم، وأقسم آخرون بأن صوت معركة سماوية بين الملائكة والترك وصلهم في هزيع الليل قبل انسحاب الأعداء بليلة واحدة.

لا شئ يعكر هذا اليقين في الطفيلة، أما في العقبة فقد اضطربت الأمور، وانشقت الصفوف والضباط العرب يسمعون بأمر اتفاقية سرية بين إنجلترا وفرنسا لاقتسام البلاد بعد النصر، في الوقت نفسه الذي تشدد أوامر(اللنبي) اللهجة، محددة دور الجيش العربي في مهمة لا تتجاوز تدمير خطوط السكة الحديد.

تذمر الضباط، وتمرد (مولود مخلص) رافضاً الانصياع للأوامر مطالباً وزملاؤه سرعة الهجوم علي معان، وتحت ضغط إنجليزي عزل(مولود) من منصبه وحجز، لم تعد الحرب حماساً عاطفياً، وبدأ القادة وأولو الأمر يتعلمون أشياء جديدة في علم السياسة، صراعٌ بين العساكر والسياسيين، بين العقل والقلب، الشك واليقين.

وفجأة، وخارج تقديرات الإنجليز تماماً، يفرج الأمير عن(مولود) ورفاقه ويبدأون بوضع الخطة للاستيلاء على معان.

«ربَّ أمةٍ تُساق إلى الجنة بالسلاسل"

مذكرات"رستم حيدر"

"كنا نرجو الناس من قبل، أما الآن فمـــــن أراد فليقعد في بيته ومن أراد أن يحارب معنا فليأت"

"فيصــل"

الأول من نيسان، حدق البدوي في السماء باحثاً عنه، وإذ شاهد خصره النحيل يواجه ظلمة الليل بنور كاب خفيف، هتف له:

- هل هلالك وعز كل جلال، كسرنا بوجهك عود، إنشاء الله كل شهر تعود.

يهدي نيروز حلله الملونات للأزهار والأطيار والفراشات ويغطي بشاله الأخضر الفيافي، إلا هذا الجنوب، شديدٌ التصاقه بالجفاف، قاس وجهه،والزهرات البرية التي شقت تجمعات الحصى البركانية ودفعت بسيقانها الرقيقة عبر الشقوق معاندة قسوة الأرض، متصدية لسياط الشمس اللاذعة بقامات لدنه هشة، ماتت سراعاً بعد أن كحلت برؤاها وبهجتها عيون العشاق.

ومثلما قست الصحراء كانت قلوب البشر، فبعد أن هاجم بعض البدو فرس الشريف"ناصر" وقتلوها، اصطدم آخرون مع المزارعين في الكرك فقتلوا كركياً وذبحوا فرساً أصيلة، أحداث كثيرة كهذه وقعت، فقاعات من كل جنس ولون تُبقع وجه الصحراء بالحيرة وتضلل النفوس.

في معسكر أبو اللسن، جلس البدو وعيونهم مسلطة على خيمة القيادة حيث يجتمع" فيصل" و"جعفر العسكري" و"نوري السعيد" والإنجليزي"داوني" يصيغون خطة لاقتحام معان.

انتظرت عيون"عقاب" دون أن يرف لها جفن، واستمع كالغائب إلى هذر بدوي متكئ على حجر أسود.

- يأمرون ولا يشاورون!! ويش يسون بلينا؟؟ ترى إن ركبوا راسهم ما نسير وياهم.

- ويش اغرضك؟؟

ثرثر البدوي كمن يحدث نفسه:

- هه!! إن قالوا يوم الربوع..ما نسير الربوع!! يوم شووم، هذول الحضر ما يفتهمون بالسوالف، إن قالوا الحدود.. حيهم، نعرفه من أيام السعود إن بنينا أو غزينا، الخميس يوم مبروك يكتسي بيه النبي، نهار التنين بعد يوم زين، والجمعة يوم

سعي والسبت حكومة ما تموت.. الثلاثا ما دريش!! إن حيرونا نحتار..!

يتمتم "عقاب":

- كلها أيام الله، وجب نسير بيها كلها.

- لا والله ما نسير غير بالذي نعرفه، الربوع ما ندوس بيه خطوة وياهم.

يحتمي "عقاب" بالصمت مثقلاً:

يبدو القلق أيضا على وجوه النظاميين. وإذ يظهر "صبحي العمري" حماساً للقتال، يهزأ زميله به:

- دير بالك العمر مش ببلاش، ليش بترمي حالك للموت؟؟ وغيرك رح يوصل للمال والجاه، مثلي مثلك، بس أنا ضابط نقلية بكرة أنا باترفع درجات، وانت شو بصير معك؟ شهيد!! لا والله فرحوا أهلك فيك.

يصم "العمري" أذنيه ويتوجع.

انشقت خيمة القائد عن المجتمعين، فوقف الرجال ملهوفين وتحلقوا حولهم يستجلون الخبر ويستفسرون عن طبيعة الخطة القادمة.

ثلاثة أرتال تقتحم معان، من الجنوب والشمال، وعبر تلول السمنات، لعزل المدينة عن وصول التعزيزات والمؤن من الأتراك إلى حاميتهم، واندفعت مجموعة "مولود مخلص" بحماس إلى التلول فاستولت عليها لتضم إليها كل القوات، ويبدأ الزحف منها باتجاه معان.

تغوي معان بفتنتها الناظرين، مستلقية بدلالها إلى جوار خط السكة الحديدية، وعندما تمر قطارات "الشمندوفر" تهتز جدران المنازل الصغيرة المربعة التي تماسكت من اللبن والطين، وتتدفق مياه الشتاء بحيوية من واديها الضيق الذي تحف به مزارع الرمان والخوخ والمشمش وقد ازدهرت في مثل هذا الوقت من السنة.

اندفع الجيش بحماس رغم موقف أهالي معان الذي ذَكَّرَ بوقوف أهالي الطفيلة سابقاً إلى جانب الأتراك. كان لدى الجند يقين من أن الموقف سيتغير قريباً، وبدا الأمير "زيد" مرحاً وهو يندفع مخاطراً كأي جندي. وتمكن الجيش من اجتياز خط

السكة الحديد محتملين الخسائر في الأرواح، وحُمل "مولود مخلص" وقد سقط عن فرسه في حُمَّى المعركة مصاباً في فخذه، سحبه البدو إلى مؤخرة الركب وراح المجابري البدوي يضمد جراحه ويجبر كسره وهو يحتمل بشجاعة شدّ قدمه من القصب وإلصاقها بمزيجٍ من البيض والصابون ثم لف الرباط حولها.. قال المجابري:

- لا تفكوه قبل سبع تيام.

لكن "كيربرايد" حمل "مولودا" على بغل، وامتطى حصانه منسحباً من أرض المعركة محتجاً على الإجراءات البدائية للإسعاف، ومضى يرافقه عدد من العراقيين الجرحى عائدين إلى المعسكر عل علاجاً أفضل يتاح لهم.

راح العراقيون الخمسة يداوون أوجاعهم بالغناء، وأطلقوا لأصواتهم العنان لغناء شجي يتمايلون على ترداده.

- قاعنا.. يا عشقنا يا عشقنا.

صرخ "كيربرايد" بالعربية منفعلاً:

- غنوا.. عرب، غنوا، هذا حرب مش "بكنيك".

ولأن أمزجة الرجال كانت رائقة، فقد مازحه أحدهم دون تكلف:

- معلوم عمي.. زعلان، مش ضاري على حرب الصحراء وركوب البغال.

زمجر "كيربرايد" مبدياً تبرمه التام:

- بغال!! فلاح، أنت فلاح تركب بغل طول عمر، اليوم وبكره وبعده.. تركب بغل.. عرب ما تنجرت.

لم تُغضب إهانته الجرحى بل أضحكتهم.

- والله هاذي "ما تنجرت" صعبة على ابن المدينة، وين تعلمتها؟؟

لم يجب، وترجل عن حصانه سائراً في اتجاه عكسي ضارباً رمال الصحراء بمقدمة حذائه العسكري، مردداً عبارات لم يسمعوها، تغامزوا وتعمدوا تجاهل غضبه عائدين إلى غنائهم بعفوية.

- يا عشقنا.. يا عشقنا.

بعد دقائق قليلة، ركض "كيربرايد" مفزوعاً غاضباً باتجاه قافلة البغال التي ابتعدت.. ركب حصانه صامتاً ومضى معهم ليهدأ توتره شيئاً فشيئاً.

أما المحاربون فقد تقدموا خطوة خطوة والقصف العنيف المتبادل لا يرجف خطواتهم، وعندما لمحوا إشارة الاستسلام رايات بيضاء ترتفع فوق دور المدينة، هللوا مبتهجين. لم تزايلهم البهجة رغم الحركة الانتحارية التي قام بها قائد القطار التركي الرابض على خط السكة، والذي اندفع بقاطراته الأربع مثيراً للدخان فوق عجلات ثلاث بدلا من أربع، منقذاً حمولة القطار من مؤونة ورجال. أمام جسارة العملية، صفق له أعداؤه العرب بإعجاب.

ودخل الأمير "زيد" والشيخ "عودة" المدينة آسرين أربعمائة تركي متحفظين على زعماء معان من العرب، وانتشرت البدلات العسكرية الزرقاء في المدينة الصغيرة الوارفة في حين تراجع البدو ليمكنوا الأمير من التفاوض مع أهالي معان في الانضمام إلى الثورة.

وتعاود الصحراء ظنونها حين يرجع "لورنس" من رحلته إلى اللنبي بسريتين من الهجانة الأستراليين، يستهجن البدو والعسكر مجيء هؤلاء إذ كانوا هم يقومون بالمهام بنجاح، وتضطر القيادة إلى تجميد تحركات السريتين لتشكلا عبئاً إضافياً على التموين، في حين يبدأ "لورنس" رحلات مكوكية سريعة، يعود في إحداها بألف جمل من سيناء تثير رؤيتها الصخب والهرج، ويعود مرة برجل غريب يدعى "وايزمن" يصطحبه إلى الوهيدة حيث يخيم الأمير "فيصل" ليتحدث الرجل عن اليهود!! ويبدو "فيصل" عازفاً عن تلك المهام المملة التي لا تعني له شيئاً إزاء حلمه المتمثل في دمشق.

جزر ومد، غيم وضباب، شك ويقين، تمور الصحراء بأحجياتها وأسرارها.

في اليوم نفسه الذي يصل فيه إلى المعسكر "محمد سعيد الجزائري" حاملاً صورة عن اتفاقية غامضة تدعى "سايكس بيكو" فيفاوض فيصلاً باسم الأتراك ولا

يصــلان إلى حل، يرسل "اللنبي" مـا يؤكد عـلى أن لجنة عليا تـعد بمنح العـرب أي أرض ينتزعـونها، وتصـبح هذه الأخبار المتـضاربة مثـار النقاش المحـتدم في خيـمة "فيصل" حتى ومئات المتطوعين الجدد ينضمون إلى الثورة.

يصل شيوخ الشعلان "نوري" و"طراد" و"سلطان" و"فارس" و"جهم"..

يحتسون القهوة ويتبادلـون النظرات ثم ينظر "نوري الشعلان" بعينين فاحصتين في وجه "لورنس" ويواجهه بصورة عن "سايكس بيكو".

- تقـولون اللي نُحُوُشـه من أرض هو لينا، وتُقسِّـمون البـلاد على هواكم في أوراقكم، ودنا نفهم.. وين الصحيح؟؟

يهز "لورنس" رأسه:

- الصحيح هو اللي يحمل التاريخ الأخير، الأرض للي يحررها..

يضحك "عودة" وفي صوته شيء من سخرية:

- اللي ما ينعرف اليوم نعرفـه غد، وحنَّا للطلايب، وشوف يا النقليزي ما ودي اسألـك عن اللي تكتبـون وتهرجـون، حنَّا ما نقـرا غيـر اللي علمـتنا الوطا.. اخلع شـوكك بإيدك، ومـا نرتضي النقليز يـعطون ويمنعـون، هاذي أرضنا تدري كـيف نردها، عاد سوالف أوراقكم وأقلامكم هيِّل عليها التراب.

تحاصر الكلمات "لورنس" وتثقل ضميره، يخرج مرتبكاً إلى خيمته بعد أن يأذن له الأميـر الذي يبتسم موزعـاً ودَّه على المحيطين به كأنه يصعـد على مدارج الحلم، يقول بصوت هادئ واثق رقيق:

- لزوم ندخل دمشق قبل الخريف.

في ذاك المسـاء سمع المحـيطون بخيـمة "لورنس" صـوت جسـده يتخـابط على الأرض الصلبة مرات ومرات، يختلج ثم يهمد صامتاً بعد آه عميقة أليمة.

دمشق قـبل الخريف، تناقل الجند عـزم "فيصل" ملتـهبين، شاعـرين بأن المرحلة الحاسـمة صارت قاب قوسين أو أدنى، ولم يـفهم كثيرونَ كـيف سيحقق "فـيصل" هذا الحلم في الوقـت الذي تزداد فيـه توترات الضـبـاط من سـوريين وعـراقـيين،

ويشتبك البدو في معارك جانبية مع أهالي الكرك الذين يهاجمون الحويطات بضراوة، مما يدفع "فيصل" إلى مخاطبتهم في منشورات تسقطها طائرة إنجليزية تحلق فوق المدينة القابعة بين الصخور الحصينة، ويلتقط الكركيون المنشور ليقرأه شاب متعلم منهم على المجموع "سمعت بمزيد من الأسف أنكم تحاربوننا!! هلموا للانضمام إلينا".

كلمات عاطفية ناوش فيها فيصل الكركيين.. وقلب الشريف بين مد وجزر وبين الجمر الذي يقبضه بكفيه والحلم الذي يطيره على جناحين، يصبر على تقلبات الصحراء، وييمم وجهه شطر أمل يسهده كل مساء .. دمشق .. دمشق .. لن نتوقف. دمشق ولو ذهبت وحدي. من أراد فليقعد في بيته ومن أراد فليأت.

"دمشق" "هامة" عمرها مئات السنين، وعدٌ غامضٌ ووجيعة استكانت في الصدور دهراً تتفجر براكينها اليوم في قلوب الرجال، الرجال فحسب، أولئك الذين احترقت أكفهم في مجمرة الفداء، أولئك الذين يسمعون خرير "بردى" في الأماسي ولا يحجب عجاج الصحاري بهاء جناتها والنعيم.

حاضرة "دمشق" مجلوة كالعروس، والرجال يجتازون وادي رم بقافلة ضخمة من الجمال والنوق ملتفين في سيرهم، وهدفهم "عمان" حيث يعسكر الجيش التركي الرابع.

عندما بدأت عمليات مشاغلة الجيش في عمان تمويهاً للجمع الأكبر الذي يلتف جامعاً البدو والدروز والحوارنة، فإن الملاريا انتشرت في عمان تحصد جنود الأتراك الهاربين من الجيش سريعاً مرتدين إلى دمشق، ولم تعد طريقهم آمنة إذ راح بدو الرولة وبني حسن يقطعون الدرب أمامهم ويصادرون أسلحتهم تاركينهم عراة ينكصون إلى دمشق.. وهكذا تحرك جيش الالتفاف بحرية مستهدفاً درعا، فاجتاز الرمثا السهلية في منتصف أيلول، وحمل المحاربون بفرح أوائل طلع الخبيزة الندية، وقطفوا الأزهار الليلكية المترامية فوق الروابي، وأطربهم صياح الديوك ونقنقة الدجاج وزغاريد النسوة في أثوابهن المطرزة

وحطاتهن الملونة.. كما لو أن كل ما تبقى هو مجرد عمليات صغيرة متفرقة لضرب السكة الحديد وتجميع الأسرى العراة وإطعامهم، لهذا كانت ترتفع أصوات الغناء ليلاً، حتى البهائم التي أتعبتها مسيرة المعركة هدأت وكأنها في استجمام سعيد. والعسكريون الذين لم يخدعهم هذا الأمان الواهم الذي أصاب الرجال جنداً ومدنيين، فراحوا يقفون عند مرور الغارات التركية ويلوحون للطائرات ضاحكين، هؤلاء العسكريون لم يمنعوا أنفسهم من الاستمتاع أيضاً وهم يستمعون إلى شعر البدو في وصف الغارات فيردون مع البقية حيهم إذا ما انبرى الشاعر متحمساً:

أمس الضحى جتنا طيـــارة ترمي دنا الموت بقللهـــا

يا حيف نَطَّاحة الغـــــارة تزين على الطور بحللهـــا

استرخاء غامض يشي ببعض المخاوف، إلا أن وجيب الشوق يشتد في المهج التي قَيَض لها أن ترصد شذى شآم عبر الفيافي.

يعرف "عقاب" أن أوامر "اللنبي" تقتضي تحديد دور العرب في تعطيل انسحاب فلول العدو الهارب ثم الذهاب إلى جبل الدروز والانتظار ريثما يصل الجيش الإنجليزي، ويعرف "عقاب" أن هذه الأوامر لا تسري إذا ما صهلت الروح، وانطلقت في الدرب الذي تعرف.

لا يعيق الروح أمر عسكري ولا مرض القائد "جعفر" ورحيله إلى "القاهرة" ولا تنافر الجيش الواحد من بدو وفلاحين ودروز وأرمن وعراقيين وسوريين. طارت، طارت ولا راد لها.

في السهول الشمالية أحسوا بنداء الحياة الفاعم يجتاح دماءهم، استيقظت الروح العالية التي خبأت أحلامهم تحت رماد حقب طويلة منذ آلاف السنين، كانت هامة شاعر مجهول مر بالمكان ناقشاً على قبره مختصر حياته تسيطر على أرواح الرجال وهم يقتربون من "دمشق":

"أيها المار هنا، كما كنت أنا تكون أنت، وكما صرت أنا تصير أنت، فاذهب إلى الحياة واستمتع بها»*

راح القادة يفسحون المجال للمنسحبين المهزومين ليواصلوا طريقهم فما عاد من المجدي التحفظ على أسرى في المسيرة الصاعدة نحو الشمال، وتفادى الشيوخ الخارجون على رأس المسيرة أية اشتباكات عسكرية مع بقايا الأتراك المتناثرين، راحت الأرض تفتح ذراعيها للجحافل السائرة قدماً دون عناء، وتوقفت المسيرة فجأة عندما اندفع فلاحون عزل من قرية "طفس" نائحين باحثين عن "طلال الحرديني".

وأمام شيخ قريتهم لطموا خدودهم وأعولوا، وهم يشرحون ما حدث:

- غصبوا البلد، يا "طلال"، حرقوا الزرع وقتلوا رجالها وصلبوا النسوان والولد، مذبحة.. ذبحونا مثل الغنم ودشروا كل من بيها نايح، وردوا ردة الشوم، بعدهم قريب يا "طلال".. إلحق علينا.

ولأن "طلال" وعدهم وانتخى.. اختلفوا.

من يملك الحق في تعطيل جيش يتقدم إلى الأمام، ثم إن الأتراك انسحبوا!!!

قال "نوري الشعلان":

- ما يحموا أرواحهم بسلاحهم؟؟ حنا بالبادية هاذي سواتنا ما نقول يا فلان إحمينا ويا تركان إلحق علينا، وما هو وقت جرجرة الجيش لـ "طفس".

اشتد حنق "طلال" فتحرك وحيداً، وقد لوى عنق جواده نحو "طفس" وتحركت "الكحيلة" بفارسها بهدوء، وتوقفت مجاورة لجواد "الحرديني"، وتبعه "عودة" صامتاً. هز "نوري السعيد" رأسه محيراً، إنه أمام احتمال بالانقسام الحقيقي في مرحلة على درجة من الحساسية، ولكنه تمكن من تدارك الأمر سريعاً مصدراً أوامره أن ترتد نصف الحملة إلى "طفس"، ويواصل البقية صعودهم شمالاً.

* عبارة نقشها شاعر مجهول على قبره قبل آلاف السنين في قرية أم قيس.

نهبت قوائم الخيل الطريق السهلية حتى لاح للفوارس عجاج بعيد.

- يا زلام هذا ما هو عجاج تراب.. هذا دخان!! دخان الحريق يا ملعونين الوالدين.

ما زالت "طفس" تشتعل، والجثث ملقاة بين الحشائش، والعجائز في الطرقات يلطمن وجوههن دون وعي وينتفن شعورهن صائحات، ورجال في الأزقة وعلى حدود القرية مطعونين بمحاريثهم.. لم يعبأ من تبقى من أهالي القرية بدخول الجيش العربي، كما لو أن ما حدث عطّل إدراكهم، أما "طلال" فقد تجوَّل بجواده بين المشاهد يكز أسنانه ويسمع صريرها.. ثم يستقيم مسدلاً كوفيته على وجهه، يربطها بحزم حول رأسه ويشد عنان جواده فينطلق معتلياً الجبل الذي تجاوزه الأتراك منسحبين.

اندفع "عودة" برجاله وراءه، وعند قمة الجبل، لمحوا فلول العدو هارباً بعد مجزرته، حارت مشاعر الغضب في صدر "طلال"، وخانته الانفعالات والكلمات فراح يردد اسمه بهوس فيه تحد.. زمجر كما يفعل البدو:

- "طلال".. "طلال".. جاكم.. "طلال".

وانحدر عن قمة الجبل، وتلفت الأتراك يستجلون مصدر الصوت، وأدرك "عودة" أن "طلالاً" صار وحده في الميدان، فضرب عنق فرسه، وانحدر وراء الفارس المنتحر فتبعته الخيول.

لم تبق تلك الظهيرة المتقدة حياً من الأتراك، وحمل "عقاب" جسد "طلال" ورفعه إلى صهوة "الكحيلة" المنذورة لحمل الشهداء، وعاد به ليدفن في «طفس». حمحمت الخيل وهي تُدفع للحاق بالجيش الذي وصل مشارف "درعا".

وقفت آلاف المتطوعين والنظاميين يتنسمون روائح الفردوس الموعود على بعد يسير من "درعا". أشعلوا النيران ليلاً، وتراقصت خيالات النور والظلمة في أعينهم، فأثارت أفئدتهم المتوثبة، وكأنما دفن المحاربون في حلكة الليل تاريخاً طويلاً من الذل والهوان والمطامع الرخيصة.. وعلت مطامعهم وغلت، أيقنوا، ونور

المعرفة يمسح صدورهم، أنهم سائرون إلى الحق.

جاء شيخ تل شهـاب يرافقه ضابط أرمني يحملان عرضـاً من "مصطفى كمال" قائد الحامية التركية في درعـا، يفتحون أبواب المدينة دون إراقة الدماء وودع التركي أهالي درعا معترفاً بأن حكومته لم تحسن إدارة تلك البلاد. وقال وهو راحل بجنده، أوصيكم بالتعاون مع الشريف.. ثم قدم درعا إلى الجيش الفاتح ليدخلها ليلاً رافعاً العلم العربي على دار الحكومة.

اجتهد "لورنس" صباحاً للحـاق بالفاتحين حاملاً أوامر الجنرال الانجليزي "باور" بإخلاء المحطة أمـام الإنجليز وعدم التقـدم، إلا أن "نوري السعيد" أخـرج بأعصاب هادئة كتاباً قديماً للقيادة البريطانيـة يحفظه في سديرية ردائه العسكري يقضي بأن ما يحتله العرب يصير لهم.

وقال ببرود تام:

– درعا لنا، ولا نتلقى أوامر من "باور"أو غيره بخصوصها.

ارتد "لورنس" سريعاً إلى الرمثا، حيث يتقدم الجنرال "باور" ليوضح له الموقف الصلب للعرب، والذي يستحسن عـدم الارتطام به أو استفـزازه في المرحلة الآنية. ولأن "لورنس" نجح في توضيح الصورة لـ "باور"، فإن هذا دخل "درعا" ضيفاً على الشـريف "ناصـر"، ووقف كـأي جندي مـحـارب يـحيـي العلم العـربي فـوق دار الحكومة.

تواترت الحركة في اللحظات الحرجـة الأخيرة، وصل "فيصل" من الأزرق، في الوقت الـذي راح الأهالي في القـرى والبـوادي يطاردون الـفـاريـن من الأتراك، قابضين علـى الأسرى، وغصت بلدة الكسـوة بالآلاف منهم، عندها نظر "فـيصل" بحزم وحنين إلى "دمشق".

دمشــــق لـو انطبقـت السماء علـى الأرض

"فيصل"

حاولت أن أحصر مطامح فيصل في نطاق محلــــــي وفي العمليات العسكرية، ولكني أرى أن لديه أفكاراً وطموحات فضفاضة جداً.

«تقرير الضابط الإنجليزي الميجر جويس إلى قائده ولسون"

لملم أيلول أذياله، ورشفت الأرض بعض البلل البخيل الذي رشقته السماء، وبين نسمه باردة وأخرى دافئة، دخل الخريف، تقلبت الصبية على فراش بارد خشن في قلب الصحراء، رأت "مزنة" فيما يرى النائم جوهرتين متقدتين...

كعبتي هذه الجواهر، حين يضحك حجر عينيك لي، ينفتح الأفق، خطوة واحدة وألج الفردوس، تحمل أطياف الحنان قلبي على أرجوحتك، وهنا مسند ورابية، اتكئ، اقترب... ألتحم بك، وأرتشف من خوابي العسل قطرة قطرة، أدخل مغارات الرغبة المجنونة، أسبح، أطير، أرقب الشلال الهادر يمطرني لأرقص تحت المطر، استحم وأغيب عن الدنيا لألتقي بالدنيا، أتعمد بمائك، بالنار والنور، بالآه والتنهيدة، بالوعد والوصل والوصول، بالشوق واللهفة والشهوة والذروة، في كل فاصلة من ذاكرتي تتجمع نشوة العمر وفرحته لأواصل الصعود، رصيد روحي وزوادتي في هذا القفر، عليك أستند وبك استغيث.

تنتفض الصبية في فراشها، تعبر بين الحلم واليقظة، تتحسس عرقها الدافئ الذي بللها في هذا الليل الندي، تُحدِّق في الفراغ محاولة تبيُّن موجودات المكان لتتضح المعالم رويداً رويداً، وقبل أن يتميز الخيط الأبيض من الأسود، نداء خفي مبهم يهز روحها، تهتف.. "عقاب".. ويخيل إليها أنه يسمعها في مكان ما في بقعة نائية، هاجس غامض ينبئها بأنها لو حَرَّكَتْ سجف ذاك الشق الصوفي سترى وجهه وعينيه تتقدان كجوهرتين تماماً كما في حلمها.

قفزت "مزنة" بحركة متعجلة رشيقة، ثم تذكرت، فتأنت، تحسست برقة وحنان تكور بطنها، وضحكت تداعب مخلوقاً متوقعاً من العدم، عاودها الرفيف الناعم وراء أضلاعها، هو الحس الذي يبرق فجأة في لحظات تجاذب روحيهما، ثمة ما يسحبها في ظلمة ذلك الليل والديرة ساكنة كأنها لوحة فريدة على صدر الصحراء.

وحيدةٌ تسير في حالك الليل، تاركة هاجسها يقودها كيفما شاء له الهوى، كأنها ستراه!! هل يبزغ قمراً منيراً في بساط الليل الأسود؟ هل ينكشف عنه نور الفجر؟ تعرف أن بينها وبينه فراسخ وأميالاً، صار في أقصى الشمال، على مشارف

حبة العين "دمشق"، كيف إذن تتوقع أن تراه، هنا في قلب "الجفر"؟ في هذه القفار؟ ذلك يحدث في قلبها فحسب.

مضمخ بالعبير هذا الليل الخريفي البديع، ورفيف مهجتها يتردد كصدى آنات الناي الشجية، ضوء نائس في الأفق تلمحه بعيداً. تقترب، تحدق جيداً فتراها، شجرة يانعة كأنما سقطت للتو من الفردوس، خضراء بهية تلتمع في حلكة الليل كما القنديل، بين الدهشة والوجل والسحر، تقدمت قدماها الصغيرتان، ووقفت بقامتها الرقيقة، فالتفت الريح حولها، وطيَّرت ذؤابات شعرها، تشعلقت عيناها أغصان الشجرة، واهتز صوتها وهي تقف في الحضرة تقاوم دفع الريح المتزايد باطرَّاد، وتسلم روحها، وتنطق بما لا تملك رده عن لسانها:

- يا شجرة أمي وأبوي تحويطي ع قدي.

تمايلت أغصان الشجرة، وزقزقت، ثم راحت تلتوي باتجاه جذعها، وراح الجذع يصغر، يدق ويقصر، وانهمر سيل من الدموع ساخنةً فوق وجنتيها اللتين صارتا بلون النار، تطامنت القامتان وتماثلتا.. المرأة والشجرة،حنت الفروع، وتهدلت الغصون، رفعت رضيعة الغزالة قدمها، فماد فنن أخضر فتّي باتجاهها واحتملها لتمتطيه، وصفرت الريح نغماً ناعماً ساحراً غريباً، فاغرورقت عيناها حناناً ووجداً وروحاً تتوق إلى معجزة، وهمست بشوق الدنيا كله:

- ارقي يا شجرة بوي وجدي.

راح الجذع يعرض ويقوي، يستقيم لترتقي الشجرة وتتسامق إلى الأعلى، وتمتد أغصانها وترتفع، طالت، طالت وتطاولت شامخة دون توقف، بينما عين "مزنة" تجوس الديار، حالك هذا السواد وعيناها نجمتان تنيران كل الزوايا، معلقتان عند حد السماء، لمحت "الكحيلة" تخب بالحبيب فوق تلال خضراء، ومن عليائها راحت ترعاه وترصد خطاه:

* * *

توقف الفتى إذ هزَّه شوق استوقفه وملك علـيه أمره بغتة، ربت كتف "الكحيلة" واستدار، نظر إلى كـبد السماء وهو يفصح باسـتحياء خجـول عن لونه، شعر بعين تنظره، لعلهـا عين الحـياة ترعـاه وترصـد خطى الجيش الواقـف فجـراً فوق التـلال الخضـر يرقب أستار الفـجر تكشف بفـرح رهيف عن وجه "دمشق" الراقـدة أسفل تلك الجبال والهضاب.

فجر نديّ والجـيش يمضي قدماً، يتقـدم الشريف "ناصر" ورجال وحـوله فرسان البادية، قلوبهـم تحجل قبل خـيلهم في دروب تلك البساتين الغنَّاء المحـيطة بالمدينة الدرة.

قلبـه وحده حلَّق في أفق لا حـدود له، أوسع من تلك السـهول، أبعـد من تلك المرامي، يرتعش إذ يناجي سراً حبيبة تسكن نجوم الفضاء، يراها ولا يرونها.

حبة الحنطة التي من أجلها نخرج إلى البراري الآن، أحتاج بقوة لتلك اللحظات من السكينة بين ذراعـيك، كما كـانت الديار ضيـقة، ولكنك سـتأتين معـي، تعالي معي، أنا لا أعرفـهم، أولئك الذين يتتبعون خطاي، ولكنهـم شعبي، إنهم ينادونني، إنهم بانتظاري على سـفـوح الجبـال وفي الوديان وامـتدادات الصـحـاري، يقفـون متفرقين ذاهلين مشتتين.. كلهم على حق!

أنا وأنت فـقط، نحبـهم جـميـعـاً ونفهـمـهم، دائماً سـتكونين مـعي، إنهم هنا بانتظارنا، يقولون نحن بانتظاركما.

سـوف تأتين، كل الليل مـشـينا معـاً، نائمين، وعنـدما أفـقنا رأيت وكـأن رياح الأحلام التي حـملتك قد عادت بك، ألبسـتك النار تاجاً لشعرك، بالحنطـة والفضة غمرت جسدك، وتركته متألقاً شافَّاً عن أعماق البحر الذي منحه لي صدرك.

أنا لم أتعـذب في البحث عنك، كنت أعـرف أنك ستـأتين، امرأة فـيهـا كل ما أعبد، خرجت من كل ما لم أكن أعبـد، بكراً وجديدة.. عروسي، حبي يقتات على حبك، وطالما أنك حية سيحيا بين ذراعيك دون أن يخرج من بين ذراعيّ.

كل هذا الألق لأن في عـمقك قطرة مـاء صافـية هي قلبك المشع، أنت بجـانبي

الآن، في هذا الفجر الخريفي والخرافي، كما لو أنك كنت هنا دائماً، أنت الآن في داخلي، لنمض معاً إلى الأبد كقطرة طلٍ تهطل هذا الصباح، ولا تتبدد، مثل حبة ماس نادرة.

انتشر الجند تحت غلالة الفجر الرائق الواعد عن القمم الخضراء، وإذ انجلى نور النهار، كان بإمكان الرجال أن يروا قواعد الجبال صفراء محمرة بتربة الأرض، خليط من رمل كبريتي وتربة زراعية، وعبر الضباب انجلت قصور "دمشق" ومناراتها ومآذنها وأبراج كنائسها كأنها الدمى من بعيد، وحبس الكثيرون دموعهم.

أربعة قرون من الاحتلال التركي عمر هذه اللحظة الوليدة الفائقة الحسن والرجاء، أربعة قرون والعرب رعايا عثمانيون، ولحظة دق الفرح طبوله في الصدور وتدافعت الخيل، كان على الأطراف المقابلة آخر المحتلين "جمال باشا الصغير" وأرتال من الأتراك والألمان والنمساويين والمجريين يرتحلون.

فجر مفعم بالمشاعر، لا تطيق الصدور انفعالات صباحه وهو يشرق كاملاً بهياً وفرس عربية فاتنة تخب صعوداً باتجاه جند البدو والدروز، وراية بيضاء تهف مع النسائم الصباحية، واستوى الفارس مقابل حصان الشريف "ناصر" رافعاً يده اليمنى الممسكة الراية بالسلام، ثم ماداً يسراه بعنقود عنب.

- دمشق تحييكم وترحب بكم، وهذا طعمه من خمايلها.

ظل العنقود الأحمر معلقاً في يد الفارس، تنظره عيون الرجال كأنه قُدّ من جوهر، ولم يتمكن الشريف الهاشمي من مدِّ يده إلى العنقود الحلو الزاهي اللذيذ إلا ودموع كل من نظر تنهمر، أجهش بعضهم بالبكاء، وصاح بدوي انفعالاً:

- طاب الموت، طاب.

طاب الموت لتطيب الحياة، وتلذذت عيون "عقاب" بحلو العنب معلقاً في فضاء المكان، يستشعر حلاوته، كما لو أنه يمج عصارته ويطفئ نيران جوفه، مثله كان الجائعون العطاشى من جند وبدو، تلاقفت عيون الفرسان والخيّالة العنقود الراوي الناضج وشبعت به بعد مسغبة، وما نفد، ولا نقص، ما زال

معلقاً مثل نجم وجوهرة.

ها "دمشق" جئناك حباً، وعشقاً، وصبابة، هالحمك الموزع في القفار، رُدَّ إليك.

استمع العرب من بدو وجند ودروز في مطلع تشرين الأول من عام ١٩١٨ وهم يدخلون "دمشق" بعد أكثر من أربعة قرون عثمانية، استمعوا إلى أحاديث شائقة من الفتى الذي جاء حاملاً قطفاً من عنب "دمشق"، مرحباً بالفاتحين، استمعوا بشغف واهتمام وهو يروي تفاصيل متناثرة عن انسحاب الأتراك، وإخراج "شكري باشا الأيوبي" من السجن ليضبط الأمور لحين وصول المنتصرين، وكيف هلل أهل دمشق وهم يرون علم النهضة العربية يرفع فوق السراي..

صباح يموج بالمشاعر ويفيض. "دمشق" روح وراح وكأس الهوى، مهبط القلوب ومعقل الركائب. "دمشق" تتفتح ياسميناً في دم الرجال المغبرين بعجاج الصحاري، القاطعين إليها وعر الدروب، هذه بوابة المدينة العتيقة، عروس الحضارات، من "بوابة لله" دخلوا جسد المدينة المشتاق، آخذين طريق "الميدان"، واختلط حدو البادية بصيحات الدروز، وزغاريد النساء اللواتي شققن الشبابيك الخشبية المزخرفة، وأطللن منها، يرشقن المارين بوردات الأصص المتراصة عند النوافذ.

الآه، والأوها، وطاب الموت، وحنًّا رجالك جينا، وميجنا وعتابا.. واللهم صلِ ع النبي. والدموع تغسل القلوب، عناق عشوائي ورقص ودبكة وقفز مثير عن ظهور الخيل والإبل تدافعت في خطوات رعناء ورغاء سعيد. "الكحيلة" قفزت مهووسة كما لو أنها ترقص على دقات قلب راكبها المجنونة، والجمع يجتاز "الميدان" إلى "باب الجابية" "فالسنجقدار"، حيث يخترقون السوق عبر مدخلي"النبي شار" و"علي باشا" ثم "المرجة".

تستوي عمائر المرجة على الطراز الأوروبي متمازجا الباروك بالفن اليوناني، وتشمخ من بينها السرايا، والعدلية، ودار البلدية، ومبنى البريد والبرق.

تتعالى الأصوات وتزداد غزارة الورد المتساقط من السماء تلقيه أيادي الحسان

من الشبابيك، ويلوحن للرجال دونما حرج، ثم يتدفق الرجال والأطفال شمال "المرجة" من "زقاق" البحصة البرانية وغرباً من ضفة "بردى" و"جادَّة" الحكومة وجنوباً من "زقاق رامي".. عالم يصب في ساحة "المرجة" المتسعة.

وعند عمود قديم، استندت امرأة ممتلئة بيضاء بضة لا يمكن أن تقدر عمرها، فوجهها الذي شع منه النور يهزأ بسنوات العمر.. راحت تدندن بهدوء أولاً، بشجن، بوجيعة مازجتها بالفرح، وهو ينفلش في مساحات صوتها رويداً رويداً فيمسح أحزانها، وعلا الصوت مستحضراً للساحة أرواح من شَدَّت المشانق أعناقهم إلى الموت فمضوا يغنون.. كانوا هنا "عبد الحميد الزهراوي" من حمص، "عارف الشهابي" من حاصبيا و"أحمد طبارة من "بيروت"، "وعلي النشاشيبي" من القدس، و"سيف الدين الخطيب" من حيفا، و"شكري العسلي" من دمشق و"باترو باولي" من حلب و"سليم الجزائري" من أقصى المغرب العربي، حضروا جميعهم وسواهم مدثرين بدمائهم، يفوحون مسكاً، مشدودين إلى أعواد المشانق. طاروا سرباً من ذكريات وذاكرة، والمرأة بوجيعة الثكلى تدندن بأغنيتهم، بفرحة العروس ترفع أمواج الأغنية وتُحرر حنجرتها ويأتي صوتها صافياً ، حريرياً، ناعماً، وكلماتها تميد وتترنح:

- زيّنوا المرجة، والمرجة لينا.. شامنا فرجة بالعز مزينا.. زيّنوها.. زيّنوا.

رغم تداخل أصوات النداءات والصراخ وتفاوت الأغاني، فإن قلوباً أخرى التقطت غناء المرأة الوحيدة ورافقتها، ومن فوق الشبابيك المضمخة بالورد والياسمين استرجعت الصبايا صباحات المشانق والأغنيات الحزينة، ورفَّت أرواح الشهداء هامات فوق الجمع الحاشد في الساحة، فأخذت بتلابيب القلوب، وحبست الحناجر، وظلت الأغنية الأخيرة التي رددها جمع حاشد تثير الهزة في جسد وروح "عقاب". كل الشهداء حضروا، وغنى من استشهد، من انتصر، ومن انتظر، بصوت مزيج من السعد والشقاء:

- زينوا المرجة والمرجة لينا.. زيِّنوها.. زيِّنوا.

وفي أقصى الجنوب أشرق الصباح تماماً، وصـار بإمكان "مزنة" أن تلمح فارسها بين الحشود يغني ويرتجف:

- ومن صدرها تفتحت زهرة

وفي صدره تفتحت نجمة الشوك.

"الكسندر كراب"

يجب أن يحكم السوريون بلادهم حسب العرف والتقاليد السائدة بينهم، إن أبناء البلاد أعرف بعرف بلادهم، وإني إذا ذكرت أبناء سوريا فلا أفرق بين أحد منهم بمذهب أو غيره، بل كلهم في نظري سواء، لأن وحدة القومية هي جامعة التفاهم وتبادل المصالح والمنافع"

"برقية الحسين بن علي إلى ولده فيصل
في تشرين الأول ١٩١٨"

كل عيون بنات سوريا واسعة، أتضيقين يا دمشق بالعشاق والمريدين؟؟

يضـيع "عـقـاب" في شوارع "دمـشق" "المرصـوفـة" المظللة بجـدران البـيـوت، المتلاصقـة ، المزينة، بإصص الزهر والريحان، يضيع في عبق الـياسمين الذي يطوق الأسوار ويحجب الأبواب، يتوه في رائحة التاريخ الذي يعـبر الأزقة المعتمة الرطبة، ويمر مثقـلاً من الساحات العريضة المفـتوحة على السماء، ويتـسكع عند سفح جبل "قـاسيـون" ويعتـليه، يطل على الأعـمـدة التي كانت أعـواد للمـشانق ثم صـارت سواري للرايات وقواعد للزينات. يتسكع "عقـاب" في توحد، يفتقده الشيخ مرات ثم يتعـود غيابه وظهوره المفـاجئ الحالم كأنما ينشق عنه السديم، و"عـقاب" يتلمس ولهاً مـلامح عشقـه الجديد فيكتـشف أن لـ "دمشق" نفس رائحـة الجنوب، وأن لها ضفائر "مزنة" وعـيني "الكحيلة" ولـ "بردى" اصطفاق الموج كما في بحـر "العقبة". يكتشف مـذهولاً أن العشق لا يتجزأ، كـما لو أنها قرمـية عظمية تمد جـذورها عبر الهضاب والينابيع وتحت رمـل الصحاري وفوق تراب البساتـين، تتشابك وتتكاثف وتعمر جوف الأرض، تـلك هي شجرة الحياة، شجـرة الحكمة التي لا نطالها، لكننا نستـشعرها، يسري نسـغها في أوردتنا ويستـشري في دمائنا ويمتزج بنسـيج لحمنا، يغذي منا العظام ويشدنا بعُرى لا تنفصم، ولأنَّ "عقـاب" كان مأخوذاً بفتنة الشجرة ولهفة المعـرفة، فإن وقائع ثقـالاً تمر إزاء عينيه فلا يعـيرها انتباهاً، ليس سـهواً ما به، ولكنه اليقين بتأصل قرميته المباركة.

في اليوم الأول للفتح العظيم لمح عقاب الإنجليزي "لورنس" متوشحاً بعلم من الأطلس حـاملاً إكليـلاً من البرونز قـاطعاً بهـما شـوارع "دمشق" المتـوترة المحتفلة الغاصـة بالغبطة والفرح. كان "لورنس" قد التقط القطـعتين البديعتين من فوق قـبر "صـلاح الدين الأيوبي"، صور تمر أمام نـاظريه، ووردة من شوك تنمو ببطء في صدره، فالبدو والدروز يخـتصمون عند سراي الحكومة، وهرج لا يمكن فهمـه أو تفسيره، والمشنقـة عادت تتوسط ساحـة المرجة كأنها صـيحة شـيطانيـة، صـورة من صـور ضـبط الأمن وإعـادة الـنظام، ولكنهـا تحـمل في

انتصابها مرارة أربعة قرون من الاغتصاب.

الشارع الذي ارتجف فرحاً يرتجف فرقاً، فمجموعات البدو وقد خبروا الغزو غنيمة، ولم يلمسوا بأيديهم زيت القرمية المبارك، تجولوا بين البيوت ونهبوا بعضها، وأدرك النظاميون أن ضبط الأمور لازم قبل وصول الأمير إلى "دمشق"، وعلى ضفة "بردى" اليمنى، نصبت الرشاشات تقتنص مجموعة من البدو نهبوا البيوت ثم انحدروا باتجاه مدرسة التجهيز. بين ذعر الرجال والإبل أدركوا ذاهلين أن هذا رصاص رفاق السلاح، وبين عتاب وجدل حول إذا ما كانت "دمشق" غنيمة أم حبة العين، حول قوانين جديدة لحرب مختلفة، انتهى النهار وإذا بفرس جندي تسقط على ركبتيها، وتلفظ أنفاسها عند بوابة السراي، ويقول "زعل" لاعقاً الوجيعة:

- ما تعبتها الحرابة في الصحاري، وقتلتها مطاردة الخويان في حارات المدينة.

يحدق "عقاب" في الصور المشوشة تمر أمام ناظريه وتعيث بنياط القلب تقطيعاً، تخفق مهجته، وتتفتح نجمة الشوك كاملة على امتداد جسده تنخر مساماته وتجرح أفراح روحه فيغص ظمأ وجوعاً.

مصلوب في ساحة الانتظار، ذاكرتي مخنوقة، أين مني عنقود العنب الذي راودني في فضاءات البادية على أبواب دمشق، تضطرب الأمواج داخلي، وما حولي، فأمسك خشبة خلاصي بقوة.. روحك قنديل معلق بين عيني يرشدني، ألمح ابتسامتك في أشد اللحظات تجهماً، يريحني تكرار اسمك مثل تسبيحة:

"ولقد ذكرتك والرماح نواهل منّي وبيض الهند تقطر من دمي"*

تموج "دمشق" بالجند وفرسان البادية يصبون في واديها ينابيع نبتت من مختلف المفاوز والسهول والفيافي، من العراق والشام والجزيرة، من كل دم عربي دفعه الحنين إلى أمجاد "دمشق" شوقاً إلى عبق الياسمين، والشريف "ناصر" الذي بدا متعباً نظر بعيون مرهقة إلى الأمير "سعيد الجزائري" مستلماً منه أمانة العلم المرفوع

* عنترة العبسي.

فوق السراي. خلي البال، ترك "ناصر" المكان وذهب ليغفو، هي استراحة المحارب بعد أن أعلنت الحكومة العربية الهاشمية باسم الشريف الملك "الحسين بن علي". ورغم أوامر "نوري السعيد" بصفته الحاكم العسكري لمطاردة كل من يقوم بأعمال النهب والسلب مغتنماً فوضى الحدث، ورغم الجراح التي لا تفسير لها بين رفاق السلاح، كانت المهرجانات الشعبية تتوالى، الشعب يغني في الخارج وداخل السراي يختصم الساسة والمحاربون، وتتعدد الأصوات، وتقع أعمال سرية ويكثر الهمس كما يكثر الصراخ، البعض ينادون بإبعاد الأخوين الجزائريين لارتباطهما الوثيق بالأتراك، وآخرون يهونون من الأمر مؤكدين أن وصول "فيصل" سيحسم الأمور، والمستشفيات تغص بالجرحى والموتى على حد سواء، فالمصابون الذين تحاملوا على أوجاعهم زحفوا إلى البوابات هرباً من الجثث المتناثرة الملاصقة لأجسادهم، ومن أعجزهم الزحف امتزجوا بالموتى وانتظروا!! بقايا وأشلاء هي آثار الحرب العالمية الأولى.

أما الذين حاربوا ومازالوا على ظهور ركائبهم يمشطون الشوارع مثل نوارس ضالة، يستمعون إلى أسماء جديدة تتوزع المهام بينها، وفوضى عارمة يشق سوادها القاتم نبأ وصول "فيصل" من "درعا".

وقف الهاشمي في المحطة نحيلاً هادئاً تشف ملامح وجهه عن الحلم، وعندما أطل "اللنبي" في سيارة الرولز رويس الطحينية الفارهة، تصايح الجمع المحتشد، ولم يتمكن النظاميون من دفع المتحمسين الذين جاؤوا لإلقاء نظرة على الزعيمين اللذين قادا المعركة، العربي ابن الصحراء والإنجليزي ابن بريطانيا العظمى، وقف "اللنبي" وملامح وجهه تفصح عن بهجته. إلى جواره "لورنس" يحاول أن يترجم كلمة يوجهها لـ"فيصل"، إلا أن "فيصل" أوقف مهمته قبل أن تكتمل بإشارة من يده، واحتقن وجهه بالدم الصاعد من شرايينه وأوردته برعشات متواصلة، لم يعد الرجل بقادر على إخفاء ارتعاشته أو السيطرة عليها، فانفجر بالبكاء.

ركب "فيصل" حصانه الأشهب، وحف به الخيَّالة ثم وراءه الهجن، ودخل

"دمشق" عن طريق "الميدان" وكأنه النبوءة، كأنه الوعد.

زغاريد وأغان وفرح تنوء به الصدور وينسرب بين كل هذا دسائس ومؤامرات وأطماع. في دار الحكومة اختلطت الصور، عمائم وطرابيش، عقل وعباءات، علماء وأعيان وموظفون، كثرت الهتافات والخطب، والكلمات أيسر من ضرب السيوف، ووسط تصفيقٍ عالٍ بايع المفتي "فيصلاً"، وهو الذي أصدر فتواه قبل عامين بتحليل دمه.

أُعيد تشكيل الحكومة، أعلن بعد قرون من الذل أول حكومة عربية، واختنق "لورنس" الذي استمتع أولاً بخيالات الصحراء وما تمنحه من رؤىً وتأملات، اختنق وسط أمواج "دمشق" كما اختنق أبناء البوادي الذين ما عهدوا الجدران، وبين الهرج والمشاعر المضطربة، ضحك "عودة" بعفوية مريرة:

– الـ ينهبون السوق يطخوهم بالرصاص، ويش يساون ويا الينهبون الجهد وهظول الراكضين لاجل الغنيمة والحكم والجاه!!

يضحك "لورنس" بمرارة من طعم آخر:

– دخول دمشق هو الذروة، ولا يجب أن ننتظر، اعبر على الموجة ولا تتمرغ في أطرافها.

يسقط قلب "عقاب" في هوة من الفراغ، ويجتاحه حنين مفاجئ ليس كفراً بنهاية المطاف، ولكن تعففاً وأنفاً من الدخول في المتاهات البشعة. يعقب الشيخ على حديث "لورنس":

– ما سمعتك تهرج بأصدق من كلمتك، حنّا ياالخو للسيف ما حنا للمغانم، خل المطامع لأهلها، ولنا أرض الله الواسعة، ما يرد كيفنا غير الصحاري اللي اطلعتنا، وانت رد بلادك، ولو اني أدري بك تعود ديرتنا، أشوف بعينيك طمع الغنيمة وربي العالم.. وحنا كفانا لحد هينه.

يسأل "زعل":

– ويش معزم يا عمي؟؟

- نرد الديرة، زَهِّب افرسك.

ثم ينظر إلى "عقاب" بود، ويواصل حديثه مع "زعل":

- أنا وأنت و"عقاب" نرد سويه، والبقية، كل يفعل ما بدا له.

"دمشق" يا اصطفاق الموج في بردى وحلاوة العنب، يا عنقودك الحلو الذي ارتشفناه في آخر موسم الدوالي، "دمشق" الهوى، لك القصورالحافلات بأحداث الليالي وعاديات الزمان وتغير الأسماء. لك التاريخ المثقل بوزر من ذهبوا ومن جاؤوا ومن سيولدون، "دمشق" لك هذا وذاك، ولنا هوى يكوي الفؤاد ولا يستثنيك ولا يستبقيك، مُعلَّقة على هدب العين حين نودعك، ومتعبة تلك الخيول الخارجات منك، مطرودة طوعاً أو كرهاً من جنانك الغناء، متعبة الخيل التي دخلتك محجلة راقصة.

قبل أن يشرق فجر جديد على دمشق، مضوا، عائدين.

«لا عن الجنة الضائعة

أتساءل- لكن

عن دروبي وآفاقها الشاسعة»*

---

* أدونيس.

ركعتان في العشق لا يصح وضؤوها إلا بالدم
أبو منصور الحلاج

انقطع الوصل المضيء الذي ربطها بفضائها الرحب فتوجعت، انقلبت على جنبها الأيمن يلفها حزن وبرد، تحرك الوجع إلى يسارها وسحقت الغربة روحها، عاودت الانقلاب في الاتجاه الأول، وابتلعت آهتها. ينبثق الألم من أسفل ظهرها وأطراف الحوض وينتشر على امتداد فقراتها، إلا أنها لا تتعجل اجتياز الخباء المسدلة أستاره حولها، تدرك أن مخاضها سيطول، وما حان الوقت لاستدعاء "عمشة" و"عليا"، وثمة رغبة مبهمة تملي عليها تحمل مشاق الوجع وحيدة، تستفرد بعلقة الغائب التي توشك أن تتشكل بشراً تجاهد لوصل ما انقطع من بهائه، وكأنما أضاعته فلا يعرف في أي الفضاءات يكون، سَمَّتْ قلبها بالخؤون واتهمت بصيرتها بالعمى، وانتظرت بجلد أن يتجدد الكشف المذهل فيخترق إليها حجب المسافات الشاسعة.

يضغط الجنين على قلبها تارة، وعلى فرجها تارة، وهو في معركة قدومه إلى الدنيا يزيدها رهقاً، عضت على الشفة السفلى فأدمتها وتأوهت، همست لأول مرة منذ رأت عيناها النور:

- آه، يمَّه

توقف جسدها عن الاضطراب والتقلب، واسترخى منهكاً فوق فراش الشيح، ربما حان الوقت لاستدعاء النسوة إلا أن قواها تخونها، بوهن التقطت عيناها المسبلتان نور النهار يتسلل من ستارة الخباء، إذ تنزاح بلطف لينسل جسد امراة نحيلة سمعت آهتها. اقتربت المرأة، فاشتمت "مزنة" عطراً تركها في طمأنينة ممتعة، انحنت المرأة بوجه بشوش فوق مزنة وهمست: "لا تحزني.. قد جعل ربك تحتك سرياً* . لم تكن "مزنة" متأكدة أنها سمعت الكلمات، ولكنها شعرت بالكف ناعمة عطوفة تمتد إلى جبينها المندى بعرق المخاض، وتمسحه، ثم ترفع كتفها إلى

* القرآن الكريم - سورة مريم آية ٢٤.

أحضانها. المرأة تحيطها بذراعيها. تهدهد جسدها، هتفت «مزنة»:

- الله جابك، تراني أموت.

ابتسمت المرأة:

- ما تموتين، هذي هلاويس الحريم خوف عالجاي.

- والمعبود، هلاويسي ما هي عالجاي، عالغايب يا خيه.

مثل عرّافة تنظر في عين الحياة، قالت المرأة:

- الغايب حيران، أشوفه كنه ماشي، بلاد تحطه وبلاد تشيله، موج يوديه وموج يجيبه، واشوف دمه مثل النار بكل ديرة وأرض والناس تفرطعت كل لاحق هواه والهوى يلحقه.

استكانت روح «مزنة» على رجع الصوت الهادىء وهو يحلق بها، كأنها تستبصر الدنيا فوق أفق الشجرة، ولكن محاولة حادة من جنينها للخروج دفعتها للصراخ من جديد:

- أخ.. يا ميمتي، يوجع.

ضحكت المرأة بصوت خشخش كخلخال فضي:

- ها يا بنيّة؟؟ اشلون يصير ولادة بليّا وجع.. ترى العزيز ما يجي بالهين.

- أدري.. ويش قلت لو صحنا نطلب عمّة «عليا».

عمق صوتها وازداد حناناً ويداها تضغطان كفيّ «مزنة»:

- شدّي حيلش يا بنية، لا «عليا» ولا غيرها تهون عليش.. وكّلي الله، قولي يا معين، وتشوفين الغايب رد والغيب حقيقة.

استطابت «مزنة» أحضان المرأة المجهولة:

- ما ظنيت تلاقينا بالديرة قبل اليوم.

- أمر بديرتكم أيام، أيام.

تحدثت المرأة وهي تريح رأس «مزنة» فتسنده إلى فخذها، ومن ردنها أخرجت شمروخ نخل تتلألأ حبات الرطب فيه حمراء كدرر من الياقوت، قطفت حبة

وأدنتها من فم «مزنة» تلقمها، ذابت الحبة للتو في فم «مزنة» التي ما ذاقت بلحاً بهذه الحلاوة واللذة، استشرت حلاوة البلح في دمها، وانتظم تنفسها حتى إن الهواء صار أرجوحة دعة وفرح، فاستبشرت بالقادم، اهتزت طمأنينتها والمرأة تزيحها بحنان عن أحضانها وتودعها فراشها ثم تقف وتستدير ماضية.

هتفت «مزنة»:

- تروحين؟؟ ألد بدون أحد معي؟

استدار جيدها كغزال بري:

- تلدين بدون أحد معك، ما تكلمين إنس ولا طير ولا جان، تطعمين الرطب لحين ما تتكحل عيونك بشوفته، أبيض الوجه والجبين، وجهه قنديل، مشقوق الصدر، مطهر القلب من كل سواد وعيب، حامل الأمانة أبد الدهر.

مضت، رفعت أطراف الستارة فتسلل النور في مثلث غمر جسد «مزنة» التي التقطت بلهفة ثوب الغريبة الذاهبة.

- ما قلت؟ ويش اسمك؟

آخر ما رأته «مزنة» عيون واسعة تغمرها بالحنان وتباركها ثم تتركها وحيدة، وآخر ما سمعته صوت عذب يجيبها:

- «رملة».. رملة يا بنيتي.

هبت «مزنة» بين الخوف والرجاء، شدت ستارة خبائها على آخرها، فدخل النهار بكل ضيائه، نظرت إلى الحي الوادع في صمته، غابت المرأة دون أثر، وتحشرج صوت مزنة، وجمع إليها النسوة وهي تردد بأسى:

- يمه... يمه.

اشتد دَفْع المخاض وغنت الدنيا «وفي ليلة الوضع صار الكون في رنة.. ناح الحمام واليمام والكروان غنى، واللي ابتلى بالغرام لا نام ولا تهنى»*.

---

* من المواويل الصوفية في المولد النبوي في مصر.

وفي الشمال فرسان ثلاثة يسيـرون الهوينا، خلفوا «دمشق» وراءهم للباحثين عن الغنائم، وعادوا من الدرب التي مروا بها فاتحين.. ييمم «عقاب» وجهه شطر الجبيبـة، ويمضي «عـودة» مثـقلاً، ويلتـفت «زعل» قلقاً، وعند مـشارف حـوران الفـاتح صدره على الكون، يهـبطون السـهوب والنجـود إلى الجنوب، والجنوب ليس جنوباً، إنه شمال ما في جنوبه وشرق مـا يجاوره وغرب ما يليه، إنه القلب، صدر الصحراء وشمـسها الحرة، فقرها وجوعها وحـرمانها، الصحراء التي تأكل إنسانها.

يلتمع السـراب في الدرب وكلما اقتربوا تبـدد، يعرفونه، وما عـاد يحرك غلَّهم ولا يرتجون مـنه نقع غليلهم، وإذا ما عـاود محـاولاته الدؤوبة لخداع ظمـئهم، رأوه بالعين وردوه باليقين:

- علامه «عقاب»؟؟

سأل «عودة» وهو يلمح لفتات «زعل» المتوالية القلقة نحو «عقاب» و«الكحيلة» اللذين تخلفا بعيداً في المسير.

- مكلوم يا عمي، ويش يفيد الحكي، شخب طفح لا بإيدى ولا بالقدح.

قهقه «عودة» يداري وجيعته، وامتص ريقه يطفىء نيران قلبه باللعب.

- وليد، بيك شده ع طراد الخيل؟

- وليدك يا عمي.

- إلحق، لو تقدر.

بخبطة سريعة على عنق الحصان مرق كالسهم، وبالرغم من الأغبرة التي عفرت وجـه «زعل» إلا أنه أعجب بـاللعبـة، يعـرف الشيخ كـيف يمتص أحـزانه ويمضي، ضرب «زعل» عنق جواده فلحق بجواد الشيخ في سباق محموم، وصارت الأرض كوناً مفتـوحاً لجوادين وفارسين.. بينما ظلت «الكحيلة» تـتهادى على الدرب حتى بدا الشيخ وابن اخيه طيفين بعيدين في عيني «عقاب».

ها هو سهل حـوران مفتوح مـثل جرح أخضر كـبير، كيف لهـذه الأعشاب أن

تنمو؟ كيف تعاند السنابل فقر الأرض وشحها؟ ولماذا يهزه الشوق ليذوب في رحم الأرض!! هواجس تعتريه و«الكحيلة» تمضي وجسده لا يترجل عنها.

آخر حروب الشجاعة، هكذا قال الحكيم، حين يلاقي السيفُ السيفَ والرجلُ الرجلَ، آخر الحروب التي نذرف فيها دماً لنشتري أنفسنا، آخر مواقف الكرامة التي نخرج فيها لنسيج الأرض بالحلم.

منكسر الآن يا أبي الحكيم، مازال طعم المرارة في فمي، ما نفع الشجاعة إذا انكسرت الروح، ما نفع السيف إذا استبدلناه بالكلام؟

ما نفع أحلامي؟ وكأن بوصايا الحكيم تلفح وجهه صهداً.

لا تنظر كثيراً حولك، ارتد بلحظة الكشف المثيرة داخلك وانظر جيداً، عندها تفصح لك الحكمة عن كامل مفاتنها ومعانيها.

«في هذه الدار أيها القلب، حيناً اعوجاج، وحيناً استقامة، فاخرج منها، هيا فالدار الحق دارنا، وأنت كالريح، حيناً حار وحيناً بارد، فاذهب إلى حيث لا حرارة ولا برودة»*.

ها أنذا يا أبي الحكيم على صهوة «الكحيلة»، الظهر المنذور ليسجى عشرات الشهداء في حمى المعارك، أنظر في أعماق الجب الذي يسكن جسدي وروحي، ها أنذا وجهاً لوجه أمام ذاتي، بيضاء، مزينة بدل «مزنة» ونزق «الكحيلة»، خضراء كما سهل أخضر لا نهاية له، تكابر أعشابه لتمتص خفايا الماء التي انطوت عليها كثبان الرمل فتنمو.. مزينة ذاتي بحجارة «البتراء» الوردية وعيون الماء.. ويا عطشي، ماذا نسقي الحكمة كي تعيش أبد الدهر؟ ماذا نسقي الحبيبات كي يلدن الفرسان إثر الفرسان، ماذا نسقي الصحراء لينبت القمح؟

احتضن «عقاب» الراية، وتأمل نجمتها وفاض وجداً، ارتعش وهو يضمها إلى صدره محكماً يمناه على ساريتها الخشبية، وظلت روحه تئن:

---

* جلال الدين الرومي.

"يا قلب يلّي بك هواجس وأحلام
تجوح جوح الذيب بأرض خلية
مالك تشوطن واقلقت نومه الأجسام
عذبتني وتون ونة خفية"

في آتون العـذاب برقت لحظة الكشف البـديعة، ورأى «عـقاب» قزحـاً يجـتاح السماء ، ولمح غيمته تتحرك في احتفاليـة بهيجة في عرض السماء وتقترب، يعرفها وإن تجسمت في زهرة أو طائر أو غمامة أو امرأة، يـعرفها، خفق فؤاده بعنف خافق صقر، والغيمـة تحول بين سياط الجحيم التي تسلطها شمس الصـحراء القاسية وبين رأسه المشتعلة، واستوى الفتى فوق فرسه التي اعترقت حتى بللت موقع خطاها.

وراح الفـتى يمنح ذاته ما وسـعه المنح ومـا اتسعت الحـياة، كـأن سيـفاً مـرَّ فوق مفـصل يده اليمنى، فـانفصلت عن الجـسد الثابت فـوق الفرس، لم يشـعر بالألم، ولكن بهجة نورانية غريبة احـتوت جسده وهو يرى اليد تنغرس في تراب الأرض، وفاح المسك في «حوران».

ترك «عقاب» يمينه والتقط الراية بيساره.

مضى غيـر عابيء بتدفق الدم الأحمر القاني الذي راح يجـري تاركاً في التراب خطاً أحمر رفيعاً يدل على «عقاب» حيثـما سار. ثمل جسده والغمامة تغزل الظل حوله برقة وتداعب وجنتيه.

صعـدت الأرض فجأة وتعرجـت، تكوَّرت وبرزت هضابها وجـبالها موشـحة بالظلال البنفـسجـية الزاهيـة، وتكاثرت أشجـارها وصخورهـا فما عـاد ممكناً رؤية الامتـداد الأخضر بل مـهرجـان من الألوان والأطياف، تصعـد «الكحيلة» بصـعود الدرب، وتنزلق بانزلاقه، ويشم العـاشق عبق الماء، يسمع حداءه وأنغامـه وكأن دمه يعزف ذات اللحن، يفـزع الفتى فزعـاً لذيذاً وهو يرى دمه يتـماهى مع الماء ليصـيرا لحناً، لحن لا علاقـة له بمجرى الدم المألوف في الأوردة أو مجـرى النهر في الأودية، وعندما اجتاز الأحراش وقف عابداً بخشـعة ساجد، وسيل «الزرقاء» يمر عند قوائم

«الكحيلة» فتسري الرعشة في جسدها الظامي.

يعطش ولا يترجل، تترجل كفه اليسرى بتلقائية كأنها ليست منه، وينثال المسك مجدداً، وهي تنغرز إلى جوار الماء كأي شجرة عتيقة.

يعتنق «عقاب» الراية بعضديه، فيسندها بجيده ورأسه ولهفته لتستقيم أعلى كتفيه.

صار خط الدم خطين، عن اليمين وعن اليسار.

غذّت «الكحيلة» السير، فتلاشى الأخضر وتوحشت الجبال ووعرت الدروب، وصارت خطوات الكحيلة مسموعة فوق الحجارة البركانية والصوان، وتجللت جبال «مؤاب» بهيبتها، تكسرت الألوان، فوق تشكيلات الصخر غامقة وفاتحة ثابتة، والفتى الذي حاصرته مرتفعات الجبال خلفه، وانزلاق وادي «الكرك» أمامه، والوهن يتقدم حثيثاً إلى جسده دون روحه. توحد بالأشياء وصار أسيراً لحالته محلقاً، حتى والفرس تهبط به مدارج الجبال.

تبدد «عقاب» طرفاً طرفاً، وكلما قطع شوطاً ترك شيئاً منه، هنا كف، هنا ساق، هنا عين.. وكأن الفرس موكولة بأن تزرع القلب في أرض «الجفر»، وما عاد القلب يجوح جوح الذيب بأرض خلية.. كان يغني موالاً خبره مرة قبل أن تجود السماء.

يا أم الغيث يا دايم.. بلي أزريعنا النايم.

يا أم الغيث..

يا أم الغيث.

على مشارف الصحراء بانت له أطياف الفضة، واتقدت جواهر الأرض، كان السراب يعكس صفاء السماء وينادي قلبه الصادي. يهرب السراب كلما تقدم العاشق.. إلى الأمام.. إلى الأمام. تتقدم مرايا السراب وتلحق بها الفرس ولا تصل، عندما انتهت الشمس إلى مغيب وتلون الفضاء قرمزياً فاتناً، شهق «عقاب» حيرة ووجداً، وتنفس بعمق أريج الدنيا، والغمامة تتراعش وتتمطى وتمد أطرافها حوله، وهَلَّ وجه «مزنة» بكامل بهائه، مبتلة بالماء كما كان ليلة الجماع الأولى في

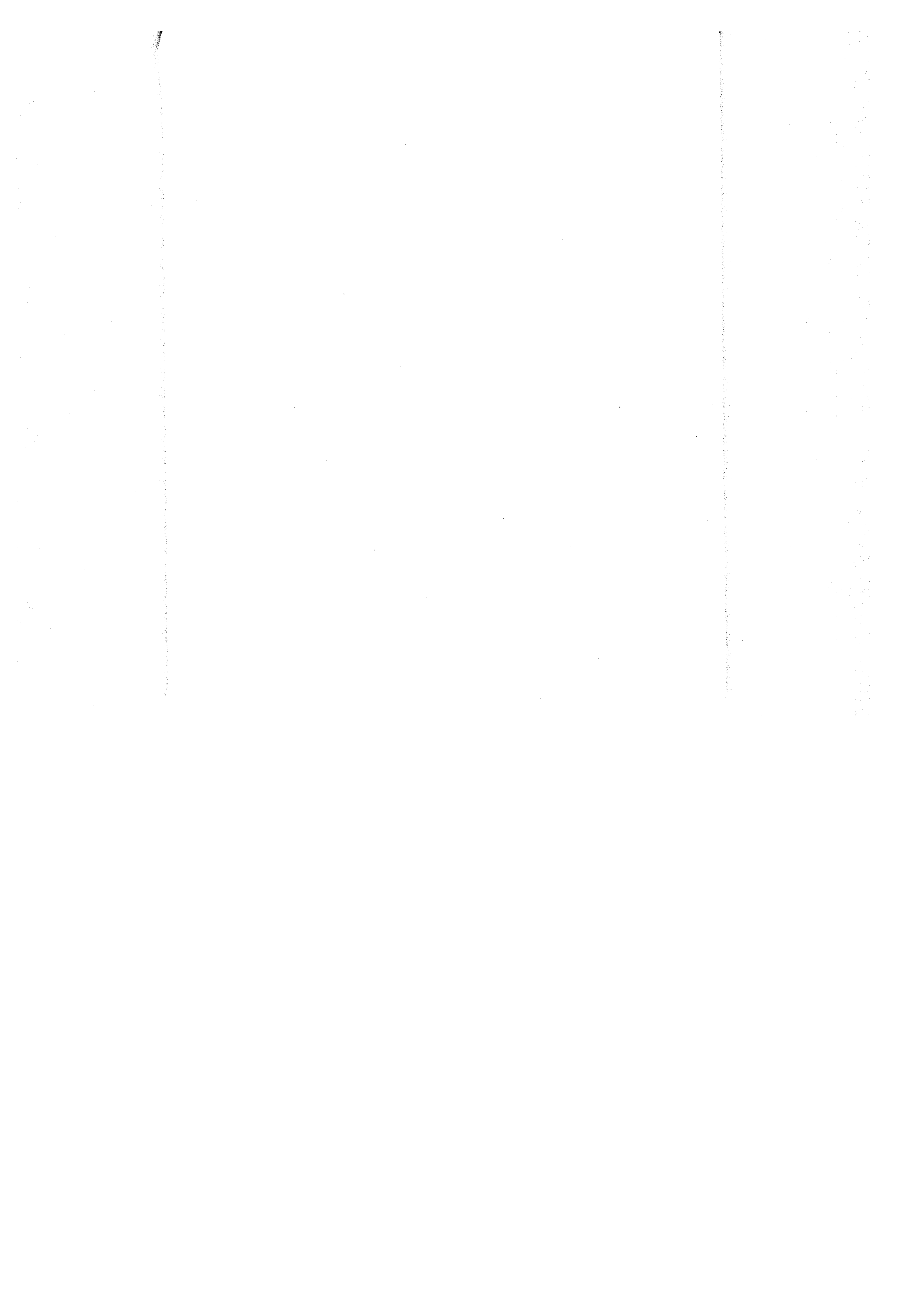
«وادي موسى». صارت الغيمة سماءً وداخلتها ألوان جديدة، أفق من الأرجوان. وعبق عطر أحلى من أريج المسك كأنما هي أبواب الجنات.

انثنت قوائم "الكحيلة"، وحنت ومدت جيدها تلامس أرض الجنوب، ودفع صدر "عقاب" القوي رأس الراية، فانزلقت قائمة نحو التراب، وانغرست السارية في جوف الأرض، فأحدث احتكاك السارية بالصخر الصلب شرارة أضاءت ما حوله، وتبدت جنات الأردن و"عقاب" يهتف: الجنة.. الجنة..

راحت الراية تخفق، والقلب يخفق وهو يهبط بجلال إلى تراب الأرض، صانعاً من عجينته المقدسة، دماً، ولحماً وطيناً. نشجت السماء، وزمجر الرعد، وأضاء البرق، والغمامة تنفلش ناثرة بهاءها فوق جفاف الأرض، مانحة ماءها.

صارت الديرة سبخات ثم فاضت أنهراً، فرشفت الأرض حتى شرقت، كأنما هو الطوفان يُطَهِّر وجه الدنيا.

حلم مر فوق الأرض العطشى، والعشاق وحدهم أقسموا أن ذاك العام كان عامراً بالماء، مُعطراً بالمسك، وأن جذوراً قوية كانت تنتزع قلوبهم ليسجدوا فوق التراب بدءاً بحوران وانتهاء بالجوف.



من إصدارات
سنابل للنشر والتوزيع

- **أن تعيش لتحكي**

السيرة الذاتية

للكاتب الكولومبي الكبير : جابرييل جارثيا ماركيز

- **حكاية إيرنديرا البريئة**

رواية وقصص أخرى

للكاتب الكولومبي الكبير : جابرييل جارثيا ماركيز

- **ليالي القصف السعيدة**

نصوص وقصص

للكاتب العراقي : محسن الرملي

- **ليلة شهر زاد الأخيرة**

شـــعر

مقـــداد رحيـــم

- **طلسمات مصرية**

محمد حسين يونس

